أزقة بغداد

الـكـتــاب : أزقـــــــة بـــغـــــداد
الـمؤلـف : بـنـيـن عـلــي (خـاتــون)
الـــتـصـنــيــف : روايـــــــــات
تـصـمـيـــم الـغـلاف : حــوراء عـبـد الـــــــــــــلـــــــــــــه
التنسيق الداخلي : حوراء عبد الله
الـطـــبـعــــــة الأولــــــــى : 2020
الترقيم الدولي: 978-9922-9358-9-8
جميع الأراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الناشر



منشــورات زيوس للنشـــر و الترجمة
الموقـع : الـمـانـيـا _ فرانكفورت
الهــاتـف: 009647738410597
الـــــبــــريـــــد الإكــــتــــرونــــي
zenosz909@gmail.com



دار و مكـــتـبـة الـكـتــاب حــــيـــاة
الـمـوقـع : الـعـراق _الـبـصـــرة
شــــارع الـهـارثــة الـثـقـافـي
الهــاتـف : 009647735268768
الــــبـــريـــد الإكـــــتــــرونـــــي
booklifelibrary2018@gmail.ccom

رواية

ازقة بغداد



الإهداء

منذُ أن كنت برعماً صــغيراً، امتصــصــت رحيـــق الحياة منهـــم، ولازلت أفعل ذلك مـن دون تـردد، تعب أمي وشيب أبـــي الحـبيب، أخوتي، أختي البعيدة الحاضرة في ذهني...

صديقتي التي رافقتني خطوة بخطوة لإكمالي هذا النور من رحم الظلام، كل الحُبّ لسيدة قلبي ورفيقة دربي...

وصــفاء الســراي أيقونــة ثــورة أكتــوبر... لمــن كــان الســبب الملهــم لــغزل كلمــات هــذه الروايــة علــى الــورق الأبـيض وبـث الحيـاة فيـه.

كتبتك في مخيلتي
مستخدمة ريشة راهب
وقدسية الكنائس المهجورة
ممتزجة بمئذنة المسلمين الجياع

ذات ليلـــة أحسـست بيـــدك تمشـط شـعـــري، وأنا أغـــمض عـــينيّ علمت أنك بعيد كل البعد عن اشـــمئزاز الحقيقة، ولأنك فقط في الخيال أغلقتها بقوة، فلمســت شــيئاً يمر على جبيني، هدأ الصـخب بداخلي قائلاً "رُب قُبلة نافعة"

خذني إلى حيثُ العدم
حيثُ آثار الزمن
ومقهى تلك الذكريات
والصور المبعثرة على أرصِفة القِدم
حيث الهدوء المفتعل
من الضجيج إلى النغم
واتركني متى شئت وأين...
ولو في المنتقم.
أمهلني،
لأحزمني
كأمتعتي القديمة الهاوية
ولا تكفي الحزم
وأشقُ طريقي
إلى قصر الهموم مُبعثراً
أقيم وحدي والنائِحاتُ خدم

"دعك من المقدمة المجد للنهايات"

ضحية أهوائه

لم أكن أريد هذا عندما كنت في العاشرة من عمري، أمي التي جلست عند رأس أختي، كيف صدقت إنها ماتت، ولكن هذا جيد هي تخلصت من قرف أبي ولم ترَ أخيها المجرم. لازلت أتذكر جيداً كيف وضعت أمي الحطب في المدفأة، يومها كانت أجسامنا بالية أكثر من ثيابنا، لم ننتظر أحداً في تلك الليلة، نزعنا رغباتنا وخوفنا عند الباب مع أحذيتنا، ثم دخلنا لعيني أمي المقدستين ودخل معنا جوعنا. تمنيت لو كان بإمكاني غلق ذاك الباب، ولكني أعلم إنه بعد دقائق سيعود ذاك السكير من الحانة كعادته . فتح الباب، هذه أول مرة يفتح الباب بهدوء، لم يسقط عند العتبة ثملاً، لم ينقض على أمي صارخًا أعطيني ما لديكِ ليشتري الخمر، بل قال كيف الحال يا أولاد! حتى أختي المريضة النائمة في حضن أمي الهزيل، قامت بنية الابتسامة لما سمعته، لكن سرعان ما تلاشى هذا عندما دخل معه رجل في الخمسين من عمره بكرش كبير وعيون تكفي لفزع سنيني العشر، يرتدي ملابساً فاخرة بل من الممكن أن يتوسخ حذاؤه من قذارة منزلنا. ودَّ أبي لو يضعه على كتفيه وهو يلهث بأنفاسه القذرة قائلاً:

- تفضل يا سيدي هذه زوجتي وأبني، وهذه ماري. أشار على أختي بشكل مدقق، وأخذ هذا السيد يقترب نحوها، ينظر إليها نظرات مقززة، وهو يطالع شعرها الاشقر وأماكن أخرى في جسمها، ولكنه لم ينظر لبراءة طفولتها! قفزت رجولتي في سني هذا لأقف أمامها. فقام أبي بدفعي، سقطت على الأرض بجانب الخبز اليابس المتعفن، وهو يقول: أبتعد عن زوج أختك.

- ولكن مـاذا ؟ مـاذا تـقول يـا رجل أن أبنتـك في الثالثة عشرة من عمرها، كـيف فعلت هذا ؟ كيف تقوم ببيعها ؟!
ذهبت ماري خلف أبي، إنها مختلفة عني، تحبه كثيراً ودائماً ما تقول هو أبانا. اختبأت خلفه:
- أبي أنت لا تفعل بأبنتك هذا ؟
- يا حبيبتي هذا الرجل غني، وسـيدللكِ أكثر مني، بل سـيجلب لكِ السعادة والحلوى، والعرائس، وكل ما تشتهين...
أخـذت مـاري تصـرخ : أرجـوك يـا أبـي، لا تـفـعـل أرجـوك... صـرخاتها في أذني لا أسـتطيع التخلص منها حتى عمري هذا، كلما أسـمع أحدهم يصرخ، أضع رأسي بين قدمي، ولكن تبقى صرخات ماري تحوم في رأسي، حين أخذها ذلك الحقير، وذهب بها بعد أن دفع المال لأبي، وهبّ أبي الـذي اختفى خلفـه، وتركني مع أمي البـاكيـة اللاطمـة على وجهها. وبعـد أسـبوع عـاد أبي، وقـد خسـر كـل الأموال في القمـار والخمـارة، وفي ليلـة ظلمـاء ليس بهـا بـدر، مخيفـة بـاردة كقسـاوة قلـب أبي، وبضـعف أمي ودموعها. طرق البـاب صـوت خفيف، نهضـت لأفتحه، فوقعت عليّ ماري بدمها. لفظت أنفاسـها الأخيرة وهي تقول بشـفتيها الزرقـاوين " أمي" ثم فـارقـت الحيـاة. لا يزال صـدري ملطخاً بـدمها، لا يزال يراودني ذاك الشعور، لم أبكِ ليلتها، بل قتلت قطتها !
وكانت أول ضـحاياي عندما ذبحتها، لأنها تذكرني بماري، ورأيتها كيف صـارعت ألم السـكين. ندمت فقط على موت ذاك الرجل على يد إحدى العاهرات، وليس على يدي.
صرت كل يوم أشرس من ذي قبل، حتى عندما مات أبي لم أحرك ساكناً، بل شـكرت الخمر على فعلته. أخذني العم محسـن وقام بتحمّل تكاليفي

ودراســـتي، وأنـا أحـمّـل الـعـالـم أجـمـع مســـؤولـيـة مـوت مـاري. عندما دخلت إلى الكلية العســكرية لم أكن مهذباً، بل فعلت الكثير. وكـانـت الشــكـاوى تصـــل للعم محســـن ويقوم بكفـالتي وإعـادتي. طوال حياة أبي كنت أقول في نفســي، بعض الـذين يرتـادون الحانـة، وبعد أن يثملوا لا يتقربون من النســاء اللاتي يجلبن لهم كاســات النبيذ، ولا يســتمعون لخلاخيلهن التي تعزف على الأرضــيـة، بـل وينـامون في الشـــوارع والبرد ينخر في أجســـادهم، لا أملـك دليلاً على هـذا الكلام كما إني لا أملك دليلاً على أن بعض العمائم قد نهبت البلاد في مســاجد الرب، خلف منبر السياسة. صرت أجوب في نفس الخمارة كل يوم، حتى عـنـدمـا أقســمـت القســم لحـمـايـة الوطـن، أضـحـك في داخلي على نفسي الملوثة، لأني أعلم أنهم قاموا بإطلاق سراح وحش للمجتمع، لم أهـتـم لـذلـك فـالـلـه ســيـغـفـر، ونســيـت أنـه عـادل، وشـــديـد العقـاب، بـل غضــضـــت البصــر عن هـذا! إلى أن رأيتهـا، حركـت مشـــاعري عنـدمـا كـانـت تـأتي لبيع الكتـب، بـل ســكنتني، آه يا حبيبتي... هل تعلمين

أين أنا الآن ؟ هذه الغرفة التي تكســوها خيوط العنكبوت وأصــوات الذين قتلتهم، أغلق أذني فأسـمع صـوتكِ فقط، تسـقط من يدي القنينة فأتكسـر معـهـا وأنـتشـــر أجـزاء عـلـى هـذه الأرض، أعـود لـمســـك كـتـابـك، أنا الذي طالما كرهت الكتب، أغوص بين كلمات صفحاته التي أعيد قراءتها بـل وأحفظهـا عن ظهر قلـب، منـذ ثمـان ســنوات! أشــم رائحتـكِ التي تجتاح عفن المكان،

أدخـل للحمـام أود لـو أني خلقـت قطرة من هـذا المـاء، عليّ ألامس وجهـك يومـاً !. إن كـل الـذين أودهم بحيـاتي، مـاري العم محســن

وأنتِ يا عشــقي، لماذا تركتني لنفســي يا الله؟ ألم يحن وقتي كما حان وقتهم؟! صــرت أعلم كيف يأخذ الشــعور مجراه في الندم.

جولة المدينة في حياتي

الساعة العاشرة مساءً وخمس دقائق تحديداً، سأخلد للنوم يا عزيزتي لين" بعثت بهذه الرسالة وأنا أعلم جيداً، أنها لا تقوم بتصديقي عندما أقول لها أني سأخلد للنوم في هذه الساعة، بعد دقائق أرسلت إليّ ردّاً كما توقعت محتواه بالضبط، أعلم جيداً أنكِ لم تنمي يا حبيبتي، ماذا هناك هل حدث شيء ؟...

- لا، ولكن أشعر بالنعاس فقط.
- حسناً، ولكن عودي إليّ إذا بقيتي مستيقظة.
- اتفقنا ..
- تصبحين على خير
- وأنتِ من أهلي
- أحبك
- وأنا أيضاً أحبك.

كانت لين هي الشيء الوحيد الذي ارتكز عليه بهذه الحياة، دائماً ما تشعرني بأني لا أشبه الباقين، حتى عباراتها معي استثنائية. عندما انتهيت من محادثة لين، وضعت الهاتف جانباً ورأسي فوق وسادتي، ومررت بنَفسي على نفسي كرواية يشتريها راويها، أغمضت عينيّ لأضيع في عتمة الظلام، ولكن سرعان ما تلاشى كل هذا، بصرخة مدوية من أخي الصغير البالغ من العمر عامين.

- آه يا أخي الحبيب. ألا تعلم أن أختك إذا سمعت صوت أقدام أحدهم في باحة البيت، لا تنم، فكيف بأحدهم وهو يبكي في الطابق السفلي. وكأنك تبكي في أرجاء رأسي يا صغيري. اعتدلت بجلستي فوق سريري، مسكين هو الوحيد يحملني أنا وتقلبات مزاجي وحيرتي وأسئلتي الغريبة.

خرجـت من غرفتي لأنظر الى عمر الخـامســـة عشــر، الى ذاك اليوم حيث كانت الواحدة ظهراً، عندما دخلت إلى الثانوية التي سُـجلت بها بعـد نجـاحي بـدرجـات تؤهلني للفرع العلمي. لم أكن أشــبهني وقتهـا، لا أعلم ولكن ضــحكاتي التي لم تفارق وجهي جعلت من الجميع أصــدقاء ومعجبين، بســبب قدرتي الشــعرية وتحمّلي لعرافة أيّ برنامج مدرســي في ذاك الوقت. كانت لين تراقب جُلّ تحركاتي بســرية تامة، ولم أكن منتبهة ربما بسبب كبريائها الذي يعلو عمرها أضعافاً، أو ربما بسبب غبائي كما تقول هي. بعد مضي هذا العام الذي لم يكن حافل بشيء من الإنجازات ســوى نجاحي من مرحلة لأخرى، عندما تقدمت ســنة تقدمت لين تجاهي أكثر، أصـبحت أراها يومياً. على لســان لين تقول كنت لا أطيق نفسـي ولا المدرسة عندما لا أجدكِ بها.

لين هي إنجازي الذي استطعت حصده في زمن، أصاب الجميع فيه قحط الأصدقاء، على الرغم من معرفتي ببضـع الصديقات أصبحت لين هي أكثر شــيء يتحمل مزاجيتي، عنادي، عصــبيتي، تقلباتي، وفي أحيان كثيرة حتى كبريائي. كنت لا أبالي حين تنام غاضبة مني، ولكن سرعان ما تلاشى هـذا الشــيء بعـد تعلّقي بهـا، فـأصــبحـت ملاذي ومســتودع روحي، زهرة بستاني، وكل شيء. لم أكن أفكر كيف سأعيش أو استيقظ من دونها، هي أختي التي لم تنجبها أمي.

جال في بالي كيف مرضــت أول مرة، وكيف اتصـلت لين في حدود الثانية عشــر بعـد منتصــف الليـل تبكي، كـأنهـا أم تخســر أول وليـد لهـا، وأصبحت عقيماً، أو ككاتب احترقت جميع كتبه، أو لا أعلم إلى الآن وتلك النبرة عالقة في قلبي وذهني.

فقلت: يا حبيبتي إنه مرض بسيط ، وسأشفى قريباً. وبالأخص إذا كان دوائي مخلوط بدعائكِ. وتراقص ضحكاتكِ على وجنتيكِ.
أومأت بنبرة حزينة إيماءةً سمعت صداها، ثم أقفلنا الحديث. ونمت بين زوايا صوتها. كانت أياماً عصيبة زاد المرض من قدرتي على تصوير الأشياء بشكل أجمل، ولم اخضع له بل جعلت منه مصدر قوتي وإلهامي، ثم جالّت في خلجاتي أيام الإمتحانات التي كانت ستؤهلني لتحقيق حلم أمي، بان أصبح طبيبة. ولكن شاء القدر واعترضت بالدموع فقط! يومها سيطر عليّ إبليس اللعين، وأغلقت عينيّ عن الرب ورحمته، فصرت اعترض كما يعترض الطفل على أمه التي لم تشترِ له ما أعجبه، بل أشترت له أجودها وأغلاها. فنحن البشر بطبيعتنا نحب التمني، الخيال، والتملك، أجل ونحب الله!
ارتميت بأحضان لين كما لو إني أود الهروب من واقعي، كما لو إني هربت من عيني أمي، أو كأني ارتميت في سريري البعيد عن خيبة الحياة و ... رنّ هاتفي ليوقظني من بشاعة ذكرياتي، وضعفي، وشرودي، وحضن لين الدافئ، مَنْ؟ إنها لين !!!
- كما توقعت لم تنمي...
- هلا تنظرين كم الساعة يا ديانا؟ بنبرة صوت غاضبة ...
نظرتُ للهاتف وإذا بها الثالثة فجراً.
- ماذا كنتِ تفعلين في كل هذا الوقت؟ بنبرة ممتزجة بالغيرة!
- حياتي لين كنت ... لم أكن أفعل شيئاً، كنتِ أنتِ فحسب ... صمتنا لبرهة ثم استمر التحقيق، وبعدها نمت وأقفلت هي الهاتف كالعادة. في اليوم التالي أيقظتني أشعة الشمس التي اخترقت روحي لا النافذة فقط، فقمت للمرآة لأنظر لنفسي قبل أن ابدأ هذا اليوم الشاق...

كيف نسيت هذا! أنا ديانا ابنة التسعة عشرة ربيعاً، أسكن مع عائلتي موطني الصغير، أبي، أمي، وأخي نديم. انتمي لأسرة شرقية ولكن لم تقيدني يوماً،

أبي يعمل مع رجال الشرطة برتبة مفوض، جلال اسم أبي، ليس اسماً بل فعل أيضاً. جُلَّ أبي وقلبه الطيب، حب الناس له، ولحيته البيضاء، يده خشنة الملمس، ناعمة العطف. أمي فضة ربة المنزل بطلتي، إلى الآن لا أعلم كيف استطاعت حملي مع أفكاري وظلام أحلامي المتكسرة، ناهيك عن بعض الأشياء التي تعد من مستلزمات الجنين! أخي الصغير حبيبي نديم، ولين ....هذه عائلتي. حسناً سأعرفكم على غرفتي، ملجأ أوهامي والحقيقة الوحيدة في عالمي. غرفة صغيرة بجدران تحمل أسراري، وسريرٌ سبق وحدثتكم عنه، مرآتي كنت كل ما نظرت إليها أقول كيف يبدو أحساس المرآة ونحن ننظر بداخلها ؟ هل تشعر بالإشمئزاز ؟ ما تفكيرها عندما نقوم برؤية تعب الأيام على ملامحنا ؟ هل تكاد من فرط الشعور لو تكسر نفسها ؟! هل يفكر الشيء بكسر نفسه قط! مكتبي الذي كان يحمل فتات أوراقي، وما دوّنت عليه من أسئلة غريبة، ودولاب لملابسي التي تعاني أمي من بعثرتها !

البيت مكوّن من طابقين، في الطابق السفلي غرفتان والمطبخ والحمام، أما الطابق العلوي يحوي غرفتي فحسب، خارج المنزل باحة كبيرة جداً، وحديقة أبي، مسيجتان. نحن عائلة اعتنقت الإسلام أباً عن جد، ولكن لا يعلمون أين الله تحديداً ! البعض يراه في المسجد فقط، والآخر يراه في القرآن وأيضاً فقط، ومنهم من يرى الله في العادات والتقاليد. أمي الوحيدة التي كانت تراه فينا.

أحب الشعر الروايات كثيراً، رغم إن لين لم تكن تحب ذلك. نحن نسكن مدينة العشق الأزلي بغداد، في حي بسيط يدعى محلة البتاويّين، غالباً ما أرى الآثار البغدادية تتغنى على شفاه جاري العجوز... لم تكن الحياة سهلة لا في بغداد ولا حتى لوس انجلس، فهنا وهناك هواء ملوث بالناس الذين يتقمصون دور المحبين، الودودين، المنافقين. جارتي التي في رأس الشارع كانت الخبيثة ذات الأخلاق، تسعى لتنال ابنتها إعجاب الطبيب الذي يسكن حينا، في حين تقول لأمي، أنها تأتي لزيارتنا وهي كاذبة تريد رؤيتي فقط، لترى كيف أبدو وتقارن بيني وبين ابنتها! لا تعلم أني إلى الآن لم أعرف حتى أسمه، لم أكن انشغل بتفاهة من هم في عمري، لا أعلم ربما أنا التافهة لأني لا أفكر بالرجال، لحظة إذا كنت تافهة فهل لين تافهة أيضاً !!!

سحقاً للمجتمع الغبي وتفكيره المريض... أما عن تلك التي تسكن بجوار منزلنا، للدرجة التي أشم بها رائحة زوجها المخمور، واستطيع سماع أنينها وهو يقوم بضربها وشتمها، وفي الصباح عندما تذهب لبيع " الكاهي والقيمر " في حينا والأحياء الفقيرة المجاورة، تدعي أن عمود بيتها نائم من فرط التعب.

عمود بيتها ..! وهو لا يصلح أن يكون قدماً لكرسي قديم في زاوية البيت المظلمة !!

كنت امتلك دراجة هوائية اشتراها لي أبي منذ طفولتي، يميل لونها للبني، أطير بها في منزلنا ثم اصطدم بتلك الشجرة، ياالله كم عذبتني، ولكني علمت كيف يقود الإنسان نفسه رغم كل العثرات.

أحب أبي ودراجتي عندما اركبها، استطيع أن أخفف من نفسي تاركة الهواء يتلاعب بخصلات شعري.

مكتبة العم بطرس

الساعة 4:45

بعد أن ارتديت قميصي الذي يعلو ركبتي قليلاً، وبنطالي الأسود، أحب اللون الأسود حتى هاتفي المحمول وحاسبتي الشخصية، شعري باللون الأسود وأحياناً عالمي ! رفعت شعري بكماشة صغيرة. أخرجت حذائي الرياضي الأبيض لأضعها في قدمي، وتذكرت جارتي اللعينة وهي تقول لأمي لماذا ترتدي ابنتك الرياضي وتفضله على الكعب، حسب ما تقول إنه يبرز جمالي كأنثى !

لا أعلم ولكن اعتقد أن أحدهم يرتدي حذاءه برأسه !

- مساء الخير ...

- مساء النور، الى أين يا ابنتي ؟

- أمي أنا ذاهبة لمكتبة العم بطرس

قال أبي: اخبريه سلامي يا ابنتي ...

- حسناً يا أبتي.

بعد أن صرت في الشارع وكانت درجة الحرارة لا بأس بها، تسمح بأن اتمشى تحتها، حيث تكاد الشمس تغيب لتترك السماء في حيرتها كما تفعل كل يوم، وأتهيأ للدخول للغوص في الأسئلة التي عادة يكون الفضل للين بالهروب منها. اخذت انظر لزوايا محلتي، حيّاني جاري العجوز مع ابتسامته التي لامست قلبي، فرددت عليه التحية، قلما نجد كبار السن يبتسمون، معهم كل الحق فقد اخذت منهم الحياة مأخذاً عظيماً.

في طريقي رأيت امرأة ثلاثينية العمر توبخ ولدها قائلة له: أن الله سيقتص منك ويضعك في النار. ولكن لماذا؟ هو طفل كيف ترسخ في ذهنه أن الرب يمكن أن يضع عبده في النار؟ لماذا لم تقل له أن الله سيحبك اذا لم تفعل هذا؟ لماذا لم تقل له إن الرب رحيم؟ لماذا لماذا...؟ نظرت إليها من غير أن أنطق كلمة واحدة حتى، بل تركتها تنتشر بالمجتمع كما ينتشر الوباء ... بعد أن وصلت الى مكتبة العم بطرس الذي كان جالساً على كرسيه البسيط، وبيده كتاب يتصفحه، ألقيت عليه السلام فرد عليّ بتحية تستحق أن أكتب بها مؤلفاً ! أخذ يسألني عن عطلة الصيف ولم يسألني عن شيء آخر، غالباً العم بطرس يعرف جوابي من عينيّ، دائماً ما يقول أن بيني وبينكِ متر وستون سنة.

- انظري يا عزيزتي لقد وجدت لكِ هذه الرواية، وأريد منكِ ان تقرئيها، وببركة العذراء ستعجبكِ. أخذت الرواية منه ولم انطق بحرف حتى قال:

- أسالي يا ابنتي أني أسمعكِ.

فقلت له ما رأيت من الطفل وأمه، ووصفت أمه كما لو كانت طفلة ابنة الثانية عشر، لشدة انزعاجي منها. أخذ العم بطرس يتجول بين كتبه التي على الغبار البعض منها، وقال لي:

- إن الناس بفطرتهم يبحثون عن غضب الرب، ليبتعدوا عنه ولا يلتفتون لرحمته. هذه فطرة الكثير، ولا يمكن أن تتغير بمرور الزمن أو الأحداث، ليس الجميع مثلكِ يا ابنتي ...

- مثلي ؟!!

- نعم...

- ولكن أنا مجرد...

- لا يا ديانا أنتِ تختلفين عنهم
- ولكن ...
- تـأخـر الـوقـت يـمـكـنـكِ الرجـوع لـلـمـنـزل قـبـل أن يـحـلَّ الـظـلام، ثم يتوجب عليّ أن أوصلكِ..!!
ارتسمت على وجنتيه ضحكة خفيفة، رأيت من خلالها الطمأنينة، قلت:
- حسناً في أمان الله
- في حفظ الرب ...
- عمي ..!
- نعم ؟
- أبي يُقرأك السلام ...
في طريقي للعودة قررت ان أرى لين، كنـت قـد اشـتـقـت إليـهـا، أو بـالأحرى أسـد عطش الصـيف بنظراتها الحنونـة. وصـلـت الى بـابها طرقـت البـاب فخرجـت لي، كـانـت تحفظ إيقـاع يـدي على كـل شـيء حتى على البـاب، تقـول إنـه عزف يُلهمهـا، تبتسـم روحي لـذلـك. عنـدمـا رأت الكتـاب بين يـدي صـرخـت جملتهـا الشـهيرة من قلبهـا:
- (اخ ديانا هم رواية، لعد وعيونج)...
- أفدي من يخاف عليّ....
- ديانا....
- حسناً كما وعدتكِ، ساعة في اليوم يا حبيبتي.
تركت بسمتي وعدت لوطني الصغير.
- أمي ...
- نعم حبيبتي
- هل العشاء جاهز أنا انصهر جوعاً ...

- غيري ثيابكِ وتعاليّ معي...
- حسنًا
لم تكن أمي التي تعطي للأكل نكهته، بل وجهها. وحينما يشبع أبي، تجاعيده تنبسط على طول السنين، فيبتسم واشبع أنا من تلقاء نفسي.
- بنيتي الحبيبة ...
- نعم ابتي ...
- متى موعد إعلان قبولاتكم في الجامعة ؟
سقط عني ذاك الشعور للأكل وتبدلت ملامحي،
ولم أعد أشعر إلا بسؤال أبي. رفعت رأسي وإذا ببسمة تعلو وجهه المبارك، قلت له: ربما في الغد أو بعده..
- عزيزتي ديانا أريدكِ أن تعلمي إني فخور بكِ، لدرجة إني أحسد نفسي على امتلاككِ، سأفرح بقبولكِ لأني على علم من أبداعكِ بهِ مهما كان...
لم أرد على أبي ولكن دموعي أخذت مجراها.
- ديا...
- دعها ...
هذا آخر ما وصل أذني بعد هروبي من نظراتهم، والحديث، وظلم الحياة...دخلت غرفتي ولا أعلم حينها، هل أغلقت باب الغرفة أم المجرى التنفسي، أحسست بضعف شديد وذهبت لوجهتي المعتادة فراشي، وسكبت تلك الدمعات على وسادتي و...

يوم مريع

إنها السابعة صباحاً...

كيف ؟ ما الذي حدث ؟ ...هل من المعقول إني نمت من دون أن أقول، تصبحين على خير للين. وهل نام نديم ولم يبكِ الليلة الماضية ؟ كيف هذا ؟!!!هل أنا فقط من بكيت ؟!

تفقدت هاتفي الشخصي، فوجدت لين قد كتبت ما كتبت من كلماتها المرتلة بالخوف، ويبدو أن النوم قد غلبها في الرابعة فجراً. اعتذرت منها بكل ما أوتيت من كلمات، ثم نهضت من فراشي السابعة والنصف، وإذا بفيروز وصوتها يتلاعب في أرجاء المنزل، وعصفورتها البيضاء حطت على شرفة روحي وهي تقول:

(أنا لحبيبي وحبيبي الي)

خرجت لأرى أبي يسقي جنته الثانية كالعادة، فجنته الأولى أمي حسب ما هو واضح طبعاً. حضّرت أمي الإفطار وتناولناه معاً. فجأة ومن دون سابق إنذار اهتزت أركان البيت، سكتت فيروز وسقط بعض أثاث المنزل، وقام أبي باحتضاننا، أسرعت أمي لضم نديم وقد تمنت لو أعادته لبطنها، لكي تكفي ذراعيها لي. كانت لحظات مرعبة، أتت حينها لين على قلبي لا على بالي، وصرخت: لين !!! أمسك بي أبي وقال: توقفي يا ديانا أظن إنه إنفجار قريب!

خرج أبي بعد ربع ساعة من الخوف، شارداً من توسلات أمي به بأن لا يتحرك من مكانه. وإذا به انفجار سيارة مفخخة قد أودى بأرواح البعض، ولم تنفجر لوحدها، بل جميع المركبات التي تواجدت بقربها ومن فيها ! حيث راح ضحيتها الكثير وتناثرت أرواحهم أدراج الرياح.

عمل شـــنيع تباً لأعداء الحياة، تباً لوحوش البشـــر، لماذا يخلق الله هذا النوع من البشر؟ وهل هم بشر أم شياطين؟
آه لين... أسرعت لهاتفي لأجدها تتصل:
- ديانا... هل أنتِ بخير يا حبيبتي؟
- أجل يا لين
- الحمد لله
- العم بطرس !!!! يجب أن اطمأن على العم بطرس ...
- حسناً
ذهبت مسـرعة اتصـل به، ولكن الهاتف مغلق.أسـرعت لمكتبته التي لم تكن إلا مكتبة بسـيطة، أجد نفسـي في كومة ترابها والكلمات.
عندما خرجت أوقفني أبي وهو يقول:
-ما زال الوضع حرجاً، إلى أين؟
قلت له: العم بطرس...
لم يجد فائدة من منعي أمام إصراري على ما أريد، قال:
- إذاً غيري طريقكِ يا ابنتي.
فقلت له: حسناً.
أسـرعت لبيتهِ ليخبرني أحدهم أنه قد أصـيب بالإنفجار، وقد نقل للمشـفى مع باقي الجرحى. آه يا عمي بطرس آه...
- خالتي مريم، أين هي؟
اخبرني جـارهم أنهـا عنـدمـا سـمعـت الخبر، إنهـارت مع دموعهـا وذهبت خلفه الى المشـفى. اسـتجمعت نفسـي وأخذت سـيارة أجرة، إنـهـا الـمـرة الأولـى الـتـي اركـب فـيـهـا سـيـارة الأجـرة لـوحـدي، ولكني لم أشـعر بنفسـي قط. عندما وصـلت المشـفى رأيت الناس متشـابكة

ومتـداخلـة مع بعضــهـا، هـذا يبكي، هـذا يعرج، هـذا يتـألم، و و و...
وصلت لخالتي مريم بصعوبة بالغة.
- خالتي مريم ...
- ديانا ابنتي ...
اســتلقت بين أحضــاني بعد أن انهمرت الدموع من عينيها الزرقاوان كبحرٍ شــقّـت منـه الأنهـار. ضــممتهـا الى صــــدري كمـا تضــم الأم طفلهـا، فأخذت تأن على صدري وهي تقول:
- ليس لي أحد بعده.
في تلـك اللحظـة كنـت صــــامتـة وكـأني أجهـل التكلم، مـاذا أقول لهـا ؟!
ســـرعان ما خرج الطبيب فانقذني من هول حيرتي، وضــياعي بين كلماتها الباكية، ليقول:
- حمدًا لله على ســلامته، هناك كســر في الحوض، قمنا بأجراء العملية وقد نجحت. قامت الخالة مريم بضــمي مره أخرى، مع الأدعية المســيحية التي لهـا مجرى مختلف على مســـامعي. واخـذت تقول للطبيـب:
- فليحفظك اليسوع يا ولدي.
ابتسم الطبيب ابتسامة دلّت على عدم عنصريته، قال لها:
- أشـــــكـركِ مــن أعــمــاق قــلــبــي يــا أمــي الــعــزيــزة.
فعلاً شــعرت بـالفرحـة لخلاص العم بطرس منـالخطر المحتم بـه، وفرحتُ لإبتســـامـة الطبيب الطيـب، أحـب الـذين يبتســـمون دائمـاً، حينما تكون تعابير الوجه معدية.
بـعـدهـا بـدقـائـق اخـرجـوا الـعـم بـطـرس مـن غـرفـة الـعـمـلـيـات، كان شــاحب الوجه، لم اســتطع ان أراه جيداً لكثرة الممرضـــات حوله، ثم وضعوه في غرفة خاصة، جاء بعدها أبي وأمي.

- ولكن أين نديم يا أمي ؟
- لقد تركته عند عمتكِ وسن.
فقلت لها: حسنًا فعلتي.
لم أرد أن يرى نديم المناظر التي تسبب بها الإرهاب القذر، خفت أن تبقى عالقة بذهنهِ، دائمًا ما تعلق الأمور السيئة في ذهن المرء، فهي ليست بلحمة بين الأسنان وتقوم بتنظيف اسنانك فتزول. هناك أمور لا تزول حتى ولو مرّ عليها ما مرّ من الأيام... أضف الى ذلك عمتي وسن طيبة القلب جداً، ابنها الوحيد مؤيد يكبرني بثلاث سنوات، يعاملني كما يعامل الأخ اخته بل وأكثر، لاشك إنه يشبه أمه خَلقًا وخُلُقًا. بعد ساعة أفاق العم بطرس، وانهالت الخالة مريم عليه، وكأنها بيت شعري وجد قصيدته، أو ربما كالعطشان في وسط الصحراء، وبعد مضي الحر وجد بركة الماء، فقال لها:
- عزيزتي مريم، حبي الوحيد، وابنتي المدللة، لن أموت واترككِ أطمئني.
تمنينا له الشفاء أنا وعائلتي، وسرعان ما خرجنا من عنده كي يرتاح. قال أبي إنه سيبقى هنا مع العم بطرس، والخالة مريم، وأن عليّ العودة مع أمي للبيت لكيّ اهتم بهم.
- كما تشاء يا أبي.
عدنا للمنزل وفي طريق العودة قلت لأمي:
- إني قلقة على لين سأذهب لرؤيتها ومن ثم أعود.
قالت: حسنًا ولكن لا تعودي من نفس الشارع يا ابنتي.

فهززت رأســي كأجابة بنعم، ثم ذهبت الى لين مســرعة. كان الطريق هادئاً حتى الطفل الذي وبخته أمه لم أره. سـرعان ما وصـلت لبيت لين، وعندما أردت وضع يدي على الباب، انفتح الباب لترتمي لين بإحضاني وهي تقول:
- آه يا ديانا أين كنتِ ؟ لماذا لا تجيبين على الهاتف ؟
نظرت الى لين وقد رأيتها مرتدية ملابسها، تشير على إنها أرادت الخروج من المنزل.
- يبدو إني نسيت هاتفي في المنزل.
- ماذا ؟... أين كنتِ يا ديانا ؟

- كنت في المستشفى مع العم بطرس
- ماذا! !!!!..مابهِ ؟
- لقد أصابه الإنفجار وهو في طريقه للمكتبة.
-وكيف هو حاله الآن ؟
- لقد خرج للتو من العملية وهو بصــحة جيدة، حســب ما قال الأطباء.
- لـم تـقـولـي لـي هـل كـنـتِ ســتـذهـبـيـن الـى مـكـان مـا ؟
- أجـل أردت ان آتـي إلـيـكِ، لـم أتـحـمـل قـلـقـي وتـفـكـيـري الـزائـد.
نظرت الى عينيهـا اللامعتين من الـدموع المحبوســة بـداخلهمـا، وقلت لها: لا تخافي ها أنا ذا أمامكِ.
قالت: أجل الحمد لله.
الله !!.. لماذا سمح الله بحدوث هذا ؟ وقتل من كان يود أن يذهب لعملهِ، ليأتي بالحلوى لابنتهِ الصغيرة !؟
- أين شردتي يا عزيزتي ديانا.
- لا لا ... لاشيء.

- هل نذهب قليلاً ...
- لا يا لين فقد تعبت اليوم أريد العودة للمنزل.
- حسناً يا حبيبتي الى اللقاء، اعتني بنفسكِ...
- حسناً الى اللقاء، أحبكِ...
- وأنا ايضاً.

اخذتني قدماي بدون أن أشعر، فكنت أحفظ الطريق من بيت لين إلى بيتي، كما أحفظ اسمي، وكيف يليه اسم أبي. كنت شاردة أتساءل ماذا حدث لفيروز..؟ هه.. كلمات تغنت بها لوطن لاتنتمي إليه مدعية حبه لها، سُجلت وصار التلفاز يُذيعها كل صباح، وهناك من يموت على هذه الأرض، ولم يسجل له شيء حتى الأرض التي دُفن بها اشتراها، تباً....!

ما هذا ؟! ياالله إنها بركة ولكن ليس ماءً! إنه دم !

لماذا؟ ألم توصيني أمي أن لا آتي من هنا، كيف وصلت الى هنا؟ أغمضت عيني ورفعت رأسي للسماء، فوجدتها صافية، هي صافية فقط، السماء صافية في هذا الكون ! عندما وصلت الى البيت وجدت عمتي ومؤيد بإنتظاري، فقال مؤيد:

- ها قد أتت أخيراً.
- هل كنتم بإنتظاري ؟

مؤيد مبتسماً: أجل يا حلوتي.

فقلت له: كيف حال أخي الودود.

- اذا كانت صغيرتي بخير، فأنا أيضاً.

صغيرته ههه، وهو يكبرني بثلاث سنوات ! سلّمت عليه وعلى عمتي، ومن ثم قال مؤيد:

- يجب أن نعود الآن.
أوصـــلتهم أمي الى الباب، أما أنا كانت ملامح التعب تشـــير ملوحة لهم، ذهبا وجاءت امي تقول:
- كيف حال لين ؟
- بخير. أين نديم ؟
- إنه نائم...
- حسنًا سأذهب لأرتاح في غرفتي.
بعـد أن فتحـت بـاب الغرفـة ورميـت بي وبثقـل هـذا اليوم على ســريري، فقـد جـاء الليـل وأنـا اتـأمـل مـاحـدث وأعيـد أحـداثـه. بعـدهـا نـادتني أمي على العشـــاء، فـأسـرعـت إليهـا لأني لم آكـل شـيـئـاً منذُ الصــبـاح، بعد أن أنتهيت قلت لأمي، أن ترتاح ســأغســل الصــحون بدلاً عنها. قالت أمي:
- حسناً يا ابنتي.
ذهبـت للمطبخ الـذي تفوح منـه رائحـة الطبخ العراقي الشـــرقي، غســـلـت جـمـيـع الصـــحـون ورتـبـتـه كـمـطـبـخ شـــرقـي أصـــيـل. هـنـا الـنـاس يـحـبـون أن تـظـهـر مـطـابـخـهـم جـمـيـلـة ومـرتـبـة، أكـثـر مـن بـاقـي الـمـنـزل، وربـمـا حـتـى أكـثـر مـن تـنـظـيـف داخـلـهـم رنّ الـهـاتـف والـمـتـصـــل أبـي، أجـابـت أمـي طـمـأنـتـه عـلـيـنـا، ثم أغلقت الهاتف، بعدها ذهبت لمشاهدة التلفاز معها، كانت نصف نائمة فهي متعبة مما حصـــل اليوم، أقفلت التلفاز وقلت لها أن تقوم لتســـتريح في فراشـها، فوافقتني الرأي وذهبت لغرفتها، ذهبت خلفها لكيّ أرى نديم، كان غارقًا بالنوم، طبعت على جبينه الملائكي قبلة، ثم ذهبت الى غرفتي. جلســـت على مكتبي وشـــردت من جـديـد بـأحـداث مـا حصـــل،

لم يكن الإنفجار شــيء جديد على بغداد، وليس الموت ببعيد لكيّ يشــتاق للعراقيين، فهو مرابط معهم، حتى إني أتعجب عند عدم سـماعي للمسـاجد وهي تعلن خبر وفاة أحدهم مقتولاً، بتنا نشـــتاق للموت الرباني !العجيب أين الله من كل هذا؟ هل هو بشيبة أبي!؟ ربما يتجسد في ضحكات أمي؟ هـل هو في طفولـة نـديم أم ببراءة عيني لين؟ قفزت من هولي متـذكرة تلك الرواية التي أعطانياها العم بطرس، لا زالت فوق مكتبتي البســيطة، بدأت بقراءتها وبعد سـاعتين من القراءة المتواصـلة، لم تدهشــني أحداثها بشيء، بل أصابني الملل. أنا شخصية معقدة من الصعب أن ينال الشيء إعجابي! أغلقتها وأرســلت رســالة الى لين، وبدأنا نتواصــل حتى الثانية عشــر، ثـم خـلـدت لـلـنوم. اســتيقـظـت بـعـدهـا عـنـد الـظـهـيرة، خرجت لأرى الحديقة فوجدتها قد اشتاقت لأبي، فأخذت دلو الماء وسقيتها به. بعدها بلحظات رنّ هاتفي الذي أحمله معي، إنها لين:

- صباح الخير حبيبتي...
- ديانا ليس هناك وقت للصباح يا ابنتي ..!
- ماذا هناك؟
- نتائج القبول في الجامعة
- ماذا؟! ولماذا أنتِ مرعوبة لهذه الدرجة عاجلاً أم آجلاً ســنعرف نتيجتنا.
- آه لبرودكِ آه.

اغلقت لين الهاتف وقد ســمعت آخر أنفاســها تخرج بإضــطراب شــديد ..! بعـد نصـف ســاعـة بعثت اليّ برســالـة تقول بـأنـنـا انقبلنـا في كليـة لـقســم الـتـحـلـيـلات الـمـرضــيـة حـزنـت بـمـا فـيـه الـكـفـايـة، عـنـدمـا انـتـهـت امـتـحـانـاتـي، وكـنـت أعـلـم تـقـريـبـاً عندما قدمت إن هذه هي النتيجة، حتى إني اســتغرقت الكثير من الدموع

كما لو إني طفلٌ تركته أمه في أول يوم مدرسي له. سخر مني الكثير من الأصدقاء والجيران وبالأخص جارتنا في رأس الشارع، كون ابنتها قد أتت بمعدل أهلّها للخروج فقط من السادس، اخذوا يقولون إنها تمثل. وماذا تريد من الله بعد لم أفرح ولم أحزن ولكن فرحتي كانت لضحكات لين، التي استمعت إليها وأنا أحادثها على الهاتف، كانت سعيدة جداً وأغلقت الهاتف وهي تقول: لم يضيع الله تعبنا.
فقلت لها: أجل!
بعدها أخبرت أمي وجاء أبي ليسمع أيضاً ما قلته لأمي، أخذني لحضنه وهو يقول:
- ابنتي الجميلة أنا فخور بكِ.
لم تكن أمي راضية، ولكنها تصنعت الرضا والإبتسامة معًا. استأذنتهم بذهابي للعم بطرس، فوافق أبي وذهبت بدون أن انتظر موافقة أمي، ربما لأني قلقة على العم بطرس أو لأني لا أحب الأشياء الزائفة! عندما وصلت للعم بطرس قلت له أن قبولي الجامعي، تم في كلية لقسم التحليلات المرضية، رشّ عليّ كلماته التي كانت مزخرفة بضحكتهِ، وبصوت الخالة مريم، ثم جاء الطبيب ليبارك لي لأنه سمع حديثنا عند الباب! بعدها بقينا نتكلم. سألني إن كنت قد أنهيت الرواية أم لا؟
قلت له:
- إنها لم تشدني لإكمالها، فأحداثها عبارة عن سرد متواصل!
فقال: كنت أخمن ردّك، وها هو تخميني يصدق!
شردت قليلاً ليقطع تفكيري صوت الخالة مريم:
- ولين يا عزيزتي؟
قلت لها: إنها في نفس قسمي يا خالتي...

بعد أن أنهيت الحديث عدت للمنزل، لأقلّب في صفحات الرواية كما افعل عند تصفحي لمجلة، فجأة وجدت اني أُنهيها وأن العنوان قد استُل من آخر أربع صفحات! حسناً كان من المفترض أن يسموها بأربع صفحات من كتاب.. عجبًا! مرّت بضعة أيام خرجنا خلالها أنا ولين لشراء بعض مستلزمات الجامعة من ملابس وغيرها، حتى إني اشتريت تلك الصدرية البيضاء التي كانت حلمي هه ... وأصبحت كابوسي!
خرج العم بطرس وذهب أهلي لزيارته في البيت، وذهبت معهم. كان بيت العم بطرس يكفي لعيشه مع زوجته... اميرته كما يقول. فهما متزوجان منذُ أكثر من خمس وثلاثين سنة، ولم يُرزقا بطفل، يقولان إنها مشيئة الرّب. لمدخل البيت صورة معلّقة للعذراء مريم، وهناك رموز من الصليب وغيرها تكاد تصبح روحاً للمنزل، وأيضاً كتاب الإنجيل. ذهب أبي لقضاء عمل طارئن وأخذت خالتي مريم أمي للمطبخ، ونديم بقيّ نائمًا، وشردت أنا من النافذة المطلّة على حديقة منزلهم الصغيرة، وكما العادة كنت ابحث عن الإله ...

- ديانا
- نعم ياعمي بطرس...
- كيف مرّت أيامكِ ؟

تنهدت قليلاً لأجيبه بصدق، فلا استطيع أن أخفي سراً عن عينيه السوداوين الذابلتين، وقلت له:

- عمي بطرس، أين الله من كل ما يحدث من انفجارات وقتل ودمار ؟ وأين هو من حلمي الذي ذهب أدراج الرياح ؟

ابتسم وقال لي: سأجيبكِ ولكن بعد أن تقرئي هذه الرواية، وأعلمي يا ديانا أن ليس لله شأن في أفعال البشر، هم يستطيعون

أن يرتقوا ليصبحوا أعظم من الملائكة، وفي نفس الوقت يمكنهم أن يكونوا أدنى من الشيطان. امسكتُ الرواية كالعادة من غير تملل، وراح كلام عمي بطرس يسبح في محيطات ذهني، اخذت أقلّب بصفحات الرواية " لحظات عشق" العنوان غريب، ولكني اخذتها متشوقة، أحسست أن لها علاقة بكل تفاصيل أسئلتي التي لا يعلم بها أحد سوى الله، الذي لا أعلم أين هو، ولكني أحبه وعمي بطرس، وربما من الممكن أن يكون الشيطان هو من يمليها عليّ .. تناثر تفكيري كدخان سجائر العم بطرس، عندما نادت الخالة مريم على الغداء. اجتمعت العائلتان وجاء أبي ليجلس مقابلاً العم بطرس، بعد انتهائنا دخلنا نحن الثلاثة المطبخ وبقي الأثنان رجلاً لرجل، تشكر والدي منهم على النفس الطيب الذي أُضيف للطعام، وتمنى لو يُقبّل روح العم بطرس لشدة وقع كلماتهِ عليه متمنياً الشفاء له. عندما هممنا بالرحيل اوقفني سؤال العم بطرس:

- ديانا ...
- أجل
- متى يبدأ دوامكِ يا ابنتي ؟
- تقريباً أمامنا شهر ونصف، لماذا ؟
- هل تحبين أن تفتحي المكتبة في وقت فراغكِ ؟

كانت هذه الجملة كبذور ورد سقطت على قلبي الصحراوي، فقلت له بنبرة ملؤها السعادة:

- أجل يا عمي

أعطاني المفتاح الذي كان يحوي على صليب صغير، وقال لي:

-هي لكِ يا عزيزتي...

لحظات عشق

حلّ المساء وكان الجميع هادئاً، حتى أسئلتي الغريبة دخلت في سبات، وضعت الكتاب الذي اعطاني إياه العم بطرس أمامي، وبدأت بالقراءة. أحسست إنه عالم مختلف، فدائماً ما تكون الروايات عوالم خيالية ملهمة وجميلة.

بدأت بالقراءة فوجدتني أغوص في طياتها، لكي ابدأ رحلتي معه من الضياع والجهل الى الإيمان بالله. فعلاً أبدع الكاتب "عبد الرزاق الحچامي" في تسلسل أحداث هذه الرواية، لدرجة إني قضيت الليل كله اقرأ بها، إلى أن مات البطل ووجدت الله أخيراً معه.

اخذني النعاس، واستيقظت عند الواحدة ظهرًا لأجد نفسي فوق الرواية، لا اتذكر ماذا حدث؟ وكيف أكملت قراءة الرواية؟ ولكن أتذكر جيداً إني عرفت أن الله موجود في كل شيء.

فهو الذي انشأ العدم وهو الذي يحيط بنا من كل ناحية، المشكلة فينا نحن الذين نبحث عن الشيطان بداخلنا أكثر من بحثنا عن الله، نبتعد كلما أقترب منا ...

- ديانا ...

- نعم يا أمي، استيقظي يا عزيزتي طعام الغداء جاهز.

- حسنٌ يا أمي قادمة.

بعد أن أكملت غدائي أخذت الإذن من أبي أن أذهب للمكتبة بعد أن تخف حرارة الشمس.

- لكِ ذلك.

كادت الشمس أن تغرب، رحت لأرتدي تنورتي السوداء الضيقة من الأسفل، والتي تتوسطها عدة أزرار. ضيقها كان كافياً لأمشي بها خطوة

وعلى مهلي للخطوة التـاليـة، كمـا هو معروف عن البنـات البغـداديـات في تـمهلهن أثنـاء السـير. ثم ارتـديـت معهـا قميصـي الزيتوني، وأخرجت حذائي الرياضـي الأبيض، وتذكرت أيضـاً تلك الجارة.. ههه .. اخذت حقيبتي ووضعت بها مفتاح المكتبة، دخلت للشارع ألقيت السلام على جار عمي بطرس في المحلـة العم محمـد، بعـدهـا رفعـت الميـداليـة وكأني أرفع الصـليب، نظرت إليه بأبتسـامة وأنا أرى فيه العم بطرس. وضـعـت المفتـاح في قفـل المكتبـة التي تضـم تراثـاً عراقيـاً أصـيلاً، وإذا بي أدخل حياة تحتوي على عوالم مصـغرة، وددت لو أني أقراءها كلها دفعة واحدة، كأن بغداد اختزنت نصـفَ جمالها في هذه المكتبة القديمة، أو كـأنهـا الجنـائن غير المقروءة! اعتـاد النـاس على العمـل طوال النهـار، لكيّ يعودوا بما يكفي لمعيشـتهم، فأصـبحت الحياة مجرد سـاعات عمل أو تـأديـة مراسـيم أخرى بسـيطـة، لم يكن هنـاك العـديـد من القراء، بـل هنـاك بعض الحمقى الـذين يسـخرون إذا مـا شـاهـدوا أحـدهم يمسـك كتابًا، فتجدهم يتخذون من عـالم الإنترنيت بدعـة لتسـليتهم أو مـا شـابـه.. يـدّعـون أنـهـم يـواكـبـون الـتـكـنـلـوجـيـا الـحـديـثـة، وكما يوجد هؤلاء يوجد أيضـاً ذاك النوع من الناس الذي يقرأ كتابًا واحدًا ثم يُصـبح بمشـيئة نفسـه فيلسـوفاً على غيره، وها هو أحدهم قادم نحوي.

- سلام ..

إيماءة خفيفة برأسي مع ابتسامة مجبرة.

- أين العم بطرس ؟

كنت أرتب بعض الكتب فكان ظهري إليه.

- لقد أصـيب في الإنفجار، هو الآن يرقد في منزله، وقد اعطاني المفتاح لكي أحلَّ محله إلى أن يأتي.

- أنتِ! أنت تفتحين المكتبة ؟!
ألتفت إليه كانت نظراته كلها نظرات استهزاء، تكلم أيضاً ببضع كلمات نتنة على مسامعي، فقلت له:
- يبدو أنك فارغ الوقت والروح ...!
- هـل تعتقـدين إنـه بطولـكِ القصـــير هـذا، ووجهـكِ الطفولي، ســـتجعـلـيـن الـنـاس يشـــفـقـون عـلـيـكِ ويشـــترون مـنـكِ ؟
- ولماذا تعتقد جميع الناس مثلك ؟
- ههههه هل تصلين إليّ !!! ...أنتِ ؟
- وهل تراني أسعى جاهدة لأن أصبح مثيرة للشفقة!
- ماذا ؟
- عزيزي هل ترى نفسك وأنت تدعي الفلسفة، مع إنك لا تعرف حتى كيف تنطقها، بالكاد تقرأ ورقة كل يوم وتأتي إلى هنا كأنك ببغاء تردد ما مكتوب بداخلها، فقط لكي تكسب الحديث مع الآخرين.
- ماذا ولكن من..؟
- السلام عليكم ... كيف حالكِ ديانا ؟
- مؤيد ... أهلاً ما الذي جاء بك الى هنا ...؟عمومًا لقد انقذت بعضـــهم من شباكي!
نظر لي ذاك الضحية بأبتسامة خبث، رفعت حاجبي دلالة على اشمئزازي، ثم ذهب.
- من هذا ؟
- لا عليـك، ليس الطعـام فقط يجعـل معـدتـك تصـــاب بـالغثيـان، صدقني يا ابن عمتي.

ضـحـك مؤيد وكـأنـه فهم مـا أرمي إليـه، وكيف كـان هـذا الكـائن دخيلاً على قاموس البشرية. قطعت حديثنا لين:

- أهلاً ... كيف حالكم ؟

- لين أهلاً حبيبتي، تعالوا وانظروا أين أنا...

تجولنـا بين الكتـب ونسـيـت أن أســأل مؤيـد مـا الـذي جـاء بـه. جـاء أحـد المـارة ليســألني اذا كـان لـدي كتـاب بعنـوان معيـن، كنت أحفظ أماكن العديد من الكتب بسبب قدومي المتقطع للعم بطرس، فبحثت عنه قرابة ثلاث دقائق وأعطيته إياه، قال:

- بكم يا طفلتي ؟

- ماذا طفلتك! أنت في الثلاثين وأنا طفلتك ؟!

- وكم عمركِ ؟

- تسعة عشر عاماً يا أخ.

- آه.. اعـتـذر وبـكـامـل قـواي الـعـقـلـيـة اعـتـذر يـا آنســتـي

- لا عليك، ولا تســتمر بـالإعتـذار، لن اخفض لـك شــيء من الســعر.

قام بحك رأسـه بأطراف أصـابعه، أخذ الكتاب ودفع وهو يبتسـم ثم ذهب. بعـدهـا نظرت الى لين ومؤيـد كـانـا منـدمجين في روايـة، فقلـت لهمـا:

- ماذا تفعلان منذُ متى وأنتما تهتمان للأدب ؟ عجباً!

ضحكا بصوت منخفض، وقال مؤيد:

- حسنًا حسنًا لا أريد الوقوع كالمسكين الذي قبلي.

- هناك ضحية لم أعلم بها

- آه يا لين، لو ترين حينما جئت أنقذت الرجل من التهلكة

- هو من رمى نفسه، لم أكن ممسكة بياقة قميصه!

قطع حديثنا طفل في العاشرة من عمره: هل أنتِ ديانا ؟
- أجل صغيري
- لقد بعث إليك العم بطرس بهذا الكتاب.
- شكراً يا لطيف الوجه.
اخذته منه كأني طفل بعمره يأخذ قالب حلوى.
بدأت أقلّب وجهه وظهره، لكي أرى العنوان، لا يهم الأهم إنها رواية جديدة و... قطع تغزلي بالرواية صوت أحدهم:
- هل أجد عندكِ رواية مئة عام من العزلة ؟
- أجل يا سيدي.
كنت قد رأيت العم بطرس ذات مرة، يضعها على يسار الرف، جلبتها له وأعطيته إياها، تشكر مني ودفع المبلغ ثم ذهب. أوشك الليل أن يفرش ظلامه المعتاد، فأسرعت لأقفل المكتبة، كان ذاك الكائن يقف يراقب من بعيد، لم أهتم له. بعد أن انتهيت اصطحبنا مؤيد إلى نهر دجلة، وكان الغروب على دجلة كأنه الوقوف على ضفاف الجنة، أخذ الهواء العليل رغم حرارة الجو يدخل نسمات قلبي، أمسكت بيد لين وقلت لها:
- هل تشعرين بما أشعر به ؟
قالت: أجل يا حبيبتي...
ثم إلتفتت اليّ، وأضافت:
- ديانا هل تعلمين إني في كل مرة أحادثكِ تنبثق من صوتكِ هذه النسمات، فأهدأ كبركة ماء بعيداً عن ملوثات البشر، أو كتسلسل كلمات أغنية مع إيقاع ملائكي... آه يا صغيرتي.

وضـعت يدي على وجنتها وكأني امسـكت الدنيا بيدي نظرت داخل عينيها وهمست لها:
- لقد جئتِ كاعتذارٍ عن قساوة هذا العالم.
كان مؤيد يسترق النظر لنا من دون أن يزعجنا، قال:
- متـأسـف، اعتـذر ولكن أجلا حـديثكمـا الغرامي فقـد تـأخرتمـا.
ضـحكنا بقهقات نكاد نلمسـها لشـدة الفرح، ثم ركبنا جميعاً سـيارة مؤيد، أوصـل لين إلى منزلها، وضـعتها وكأني وضـعت ضـحكتي في مكانٍ آمن من هـذا العـالم، ثم أوصـلني مؤيـد عنـد بـاب البيـت وذهـب لأمـهِ، فمؤيد منذُ أن اسـتُشـهد أباه لا يفارق والدته، يقول إنها تتنفس من خلاله. أجـل فعـلاً أن الأم هـي الشـيء الـوحيـد الـذي يخـاف أن يخسـرك حتى ولو كنت أمام ناظريها، فغداً عندما تموت ربما ينثرون فوقك التراب، وتـتـطـايـر أحـلامـك مـع الأوراق الـتـي كـانـت تـعـلـو مـكـتـبـتـك، سـيقول من يحزن إنا لله. سـينسـاك البعض ويأتي البعض الآخر لزيارتك، اذا كنت في طريقهم، أو ربما سـيختصـرون الوقت بقراءة سـورة الفاتحة على بعد بضـعة كيلو مترات. وحدها أمك من سـيثمل المارة من فرط النظر إليـهـا وهـي تـجـلـس عـنـد قـبـرك، وكـأن الـتـراب أُهـيـل عـلـى روحـهـا فأصبح جزءاً منها.
- ديانا يا ابنتي
- أجل يا أمي ..
- تعالي العشاء جاهز ..
- قادمة
بعـد أن انتهينـا اسـتقبلتني غرفتي على أحرّ من الجمر أتكأت على دولابي أمسكت الهاتف وقلت للين إني سأنام، وبعد التحقيق كالعادة سمحت لي

بأن أخلد للنوم. استيقظت في اليوم التالي الساعة الثامنة صباحاً، كانت أشعة الشمس كافية لحرق بشرتي الحنطاوية، وكافية للقدر الذي يجعل وجه أمي محمّراً، فأمي ناصعة البياض، أما أنا فشبيهة لأبي وهذا من الإيجابيات في حياتي. في حديقة المنزل لدينا أرجوحة صغيرة، عندما أكملت أفطاري خرجت لأرى نديم يلعب بالتراب، ثم قال لي بكلمات متقطعة إنه يريد أن يصعد تلك الأرجوحة، حملته بين يدي وأجلسته بجانبي حيث وضعت يدي محيطة بكتفيه من الخلف، واليد الأخرى على بطنهِ. جلست معه وأخذت أهزها فصار نديم يمسك قميصي من نهاية ظهري تحديدًا، كانت قبضته محكمة، وباليد الأخرى يُمسك بأصبعين من يدي التي كانت فوق بطنهِ، ثم فجأة تدخل نسمات الهواء في اللعب لتخترق خصلات شعر هذا الصغير، لتصل لأعماق روحي وتحرك أياماً وذكريات كفيلة بأن تجعلني أغيب عن وعييّ لثوانٍ، وفي نفس اللحظة كنت مصدر الثقة والقوة والإسناد لنديم، ولو للحظة واحدة تخيلت أن الذي يهز الأرجوحة هو ذلك الطفل بداخلي!

ارتديت ملابسي للذهاب للمكتبة، وفوجئت به واقفاً على باب المكتبة، يا لله أصبحنا وأصبحت الأشواك في الطرقات!

- صباح الخير

- أهلاً تفضل هل هناك شيء ؟!

- لا كنت ألقي نظرة

- أها نظرة!

نظرت اليه من فوقه لتحته، كانت أشارة كافية لتنحيه عن الباب. تحت المكتبة وبدأ صخب المارة يجيء ويذهب،
تغلغلت في داخل المكتبة وبدأت أرتب الكتب.

- مع إن اللواتي في عمركِ يذهبن لتسوق الملابس، ويبدين اهتمامهن في الموضة، لماذا أنتِ هنا ؟

إلتفت إليه بنظرة غريبة وقلت له مع إن الذين في عمرك ماتوا في الحرب أو الإنفجارات، وربما داهمهم المرض.. لماذا أنت هنا ؟

جاء العم محسن صديق العم بطرس، قال:

- أذًا أنتِ ديانا.

إلتفت اليه كان رجلاً طويل القامة في الستين من عمره، يحمل بيده آلة موسيقية يسميها البغداديون العود، ويرتدي الزي الرسمي. مظهره الجذاب ونعومة ملامحه، وطريقة نظرتهِ للكتب كأنه يلقي عليها التحية، تجبرني بأن أسميه الأفندي.

- ماذا تفعل هنا يا سنان ؟

أحنى رأسه له بل كاد أن يغمى عليه من شدة الأدب، عجيب هل يتصنع الود! أم...

- عمي محسن كيف حالك ؟

- بخير وأنت ؟

- بأفضل حال

- هل أنت في إجازة ؟

- نعم يا عمي وصلتُ قبل مدة، وأردت أن آتي لزيارتك الليلة. ثم انصرف سنان، لا لم يكن سنان بل كان شخصًا اخر، عجبًا!

ألقيت عليه السلام وجلبت له الكرسي لكي يجلس، نادى على غلامه بأن يأتي بالشاي، فجاء بقدحين من الشاي، وقال لي:

- تشربين الشاي أليس كذلك ؟

- نعم لا أجد مانعاً في شربهِ، من أين تعرف اسمي ؟

- بطرس ...يحبكِ جداً

- آه عمي بطرس

- كيف رأيتِ السوق يا صغيرتي ؟

- جميل بعض الشيء لولا وجود البعض.

نظر الى الجهة المقابلة: أها سنان، أجل إنه فض بعض الشيء، ولكنه يحبني جداً ويحترمني.

- ولكن يا عم لا أعلم كيف استطاعت أمه أن تتحمله تسعة أشهر داخلها، ثم عشرين سنة أمام عينيها !

ضحك العم محسن وقال: لا يختار البشر أبويه ولا الأبوين ابناءهم، هذه مشيئة الله في الحياة.

- أجل، هذا صحيح، هل تعزف على العود ؟

فأجابني بلهجة بغدادية: (بلي) منذُ نعومة أظافري، العود دنياي التي استريح بها من ضجيج الحياة، وكأني أنتقل للعالم السحري، أستطيع أن أضع عمري في جانب، والعود في الجانب الآخر، أتساءل كيف يعيش الآخرون من دونه!؟

- ربما الآخرون ليسوا أحياء يا عم.

- وجهة نظر، كان بطرس دائماً ما يحب أن يستمع لعزفي.

- هل أنتم أصدقاء بضع سنين، أم محلة وعمر ؟

- لا يا ابنتي أنا وعمك بطرس كبرّتنا مصاعب الحياة،

فشـــاب الرأس والقلب أخضـــر، أنا وبطرس أصـــدقاء منذُ أن أحببنا نحن الأثنين الإنجيـل والقرآن، فكمـا يقول كـاظم الحجـاج، الشـــرق دمعتـان للحســين يا بنيّ وللمســيح، وها نحن الى الآن ..لا يســتطيع الأنســان أن يعيش بمفرده. كان بطرس وزوجتي وابنتي الوحيدة التي ذهبت راكضـــة خلف حبها من أحمق أخذها مني، يُقنعني عندما يأتي بها لزيارة. هم أوتاري التي فوق العود وأعيش عنـدمـا أعزف، ولايســتطيع العـازف العزف اذا فقد أحد هذه الأوتار.

أخذ العم محسن يحرك أصابعه على تلك الآلة كما تتحرك راقصات الباليه، لينتج لحن (مرينا بيكم حَمد وإحنه بقطار الريل) أحســست إنني أنا في هذا القطـار، وليس حمد ســوى كنية عني. شــعور غريب امتزج بفعل الـموســيقى والـكـلـمـات، وذهـنـي الـشـــارد في داخـل الـمـكـتـبـة، عـنـدمـا أكـمـلـهـا ســـألـتـه عـن واقـعـة هـذه الأغـنـيـة، لأن الـقـدمـاء غـالـبـاً مـا تـكـون لـهـم أســبـاب خـلـف كـل شـــيء ... فـأجـابني إنهـا من إبـداعـات الشـــاعر مظفر عبـد المجيـد النواب، حيـث تروي الـروايـات بـأن الشـــاعـر مظـفـر الـنـواب كـان مســـافـراً في قطار الدرجة الثالثة وتجلس أمامه امرأة أربعينية جميلة الملامح، متعبة جـافـى عـيـونـهـا الـنـوم رغـم مشـــقـة وطـول الـطـريـق، فتحـدث معهـا وحكـت لـه قصـتهـا، والقطـار يمر بقريـة أم الشـــامـات نحو الجنوب ببطء دون أن يتوقف فيه. كانت لها علاقة حب بابن عمها أشـــتـهـر أمـرهـا بـيـن الـنـاس، وبـمـا أن الـعـادات والـتـقـالـيـد لا تســمح بزواج من ينتشـــر أمره، توجـب عليهـا الهرب الى بغـداد والـمـرور بـيـن فـتـرة وأخـرى بـأم الشـــامـات حيـث مـنـزل حبيـبـهـا، فتعود لها الذكريات.

(مرينا بيكم حمد واحنا بقطار الليل وأسمعنا دگ گهوة وشمينا ريحة هيل)
وتنتقل الصـــورة الشـــعرية، فتطلب المرأة من القطـار أن يبطئ بحجـة ألا يـوقـظ طـائـر (الـگـطـة) الـنـائـم تـحـت الـســنـابـل الـذهـبـيـة، لكنها تريـد أن تبقى أطول فترة ممكنـة بجوار حبيبها، فتخاطـب القطـار قائلة:
(ياريل صيح بقهر صيحة عشگ ياريل هودر هواهم ولَك حدر السنابل گطة)
كتبت القصيدة في ١٩٥٦ وأكملها في ١٩٥٨.
عندما فَرِغَ من ســرد القصـــة قلت لـه: يا عم ماذا لو ضـــفرت تلك المرأة بمن تحب؟ ماذا كان حصل ؟
- ســاعتها لم يســتطع مظفر كتابة هذا الشــعر، ولم نحصــل على المتعة التي دامت بضع دقائق عندما كنا نتغنى بها.
قالها العم محسن وهو ينظر لعوده:
- ههه.. فعلاً مصائب قومٍ عند قوم فوائدُ.
- هل أستطع أن أمسك بالعود قليلاً؟
- بالتأكيد ياصغيرتي.
أخـذت العـود منـه وحملتـه بحـذر كمـا لو كنـت أحمـل تراثـاً أثريـاً، بـدأت أمرر أصـــابعي على الأوتـار، وســرعـان مـا دخـل الهواء معنـا مـدعياً في ســرعـة هبوبه الغيرة. نظرت قليلاً للوجود وتخيلـت إني أعزف عـلـى هـذه الأوتـار فـتـراقـص الشـــعـور بـبـالـي كـأمـيـرة صـــغـيـرة، والقصــر يعج بالموســيقى. أو كأني أقف على حافة الجمال أو ما شـــابه، ولكن ســرعـان مـا تـداخلـت الألحـان مع بعضـــهـا ليهرب الـهـواء، وهو يقول ليس لي دخـل. وأســتفيق أنـا من خيـالي. قـال العم محســن: هل تودين العزف؟

- بكل سرور ياعم
فوعدني إنه سيعلمني العزف ولكن بعد أن أنتهي من دراستي، لكيلا انشغل، وقال إني أستطيع أن آتي ليعزف لي متى شئت.
غابت الشمس رغم إن وقت الغروب لم يحن بعد، تلبدت السماء بالغيوم.
- عليّ الرحيل فعمكِ بطرس بأنتظاري، ومنذُ أن كنا في عمرك لم نتأخر ولو لحظة على بعضنا، أقسم إنه يعاقبني اذا تأخرت في هذا العمر، فلا يُعطيني الشاي.
ابتسمت له كما لو أني لا أريد ذهابه ولا أريد معاقبته، فقلت له:
- لك ذلك
ذهب العم محسن ولكن لم يذهب لحنه من أذني.
بعد مدة أغلقت المكتبة لكي انصرف، وإذا بسنان ينظر لي، لم أعره اهتمامًا.
ذهبت للعم بطرس حتى أسلمه ما كسبت خلال هذه الأيام، وعندما وصلت ادخلتني الخالة مريم بعد السلام المعتاد، فوجدت اثنين من أقداح الشاي، علمت ساعتها إن العم محسن لم يُعاقب.
جاء العم بطرس فرحب بي أشد الترحيب، جلست معه وتناقشنا بما حدث خلال هذه الأيام، ثم أعطيته ما جنته المكتبة فرفض أخذها، ومدها لي كأجر يومي، قلت له:
- إني أتقاضى أجري كل يوم عندما اقرأ أحد كتبك، لتفتح نفسي على الحياة وتجعلني أتحمل مقابلة بعض الأشخاص!
أراد أن يضيف على كلامي، ولكني رفضت مدعية إني لن أفتح المكتبة بعد اذا رفض أن يأخذ المال، فأخذه وهو يقول:
- فتاتي العنيدة.

كان الظلام قد حل، اتصــلت بوالدي لأقول له إني مدعوة على العشــاء مع العم والخالة مريم، وليس بشيء جديد هذا لأنهم عائلتي الثانية، فكثيرًا ما اعتنى بي عمي بطرس عندما تعرّفنا عليهم. بعد أن انتهيت وقمت مودعة لـه مســتعـدة للخروج، قـال إنـه ســيلحق بي غـداً الى الـمكـتبـة مدعياً إن البيت يُزيد من مرضـه، فرجلاً مثله لا يستطيع أن يقابل الجدران بحجة العجز. فوافقته الرأي.

خرجـت من منزل عمي بطرس وكـانـت روحي تضـحـك لمـاذا لا أعلم، ولكن مقـابلـة النـاس معـديـة لحـالتهم مهمـا كـانـت. بـدأت الغيوم تتجمع في الســمـاء وهطـل الـمطـر، ولـكنـه كـان خفيفًـا، كمـا يقـولـون: (حجيك مطر صـيف مابلل اليمشـون). نظرت حولي وإذا بالناس تتسـارع للهروب من المطـر، ولكن لمـاذا فـأنـا أرى متعتي بين قطرات المطر كأنها تغســل روحي، أو كأن الملائكة تبكي من فرط الحب لمعشــوقهم. الهواء عليل والظلمة لم تكن فقط ظلمة الليل، فأرواحنا لها جانب مظلم والليـل يقـوم بســتر هـذا الجـانـب عنـدمـا يخلطهـا مع ظلـمتـه. في الواقع لا يـأتي الليـل في الليـل فقط. لم يكن منزل العم بطرس بعيـد عن منزلي وســرعـان مـاوصــلت للمنزل، لأجد أبي الحبيـب يغـازل أمي، وهو يقول لها:

- شــكرًا لأنـكِ اهـديتني أجمـل شــيء، وشــكراً لأنـكِ كنتي الطريقـة التي رزقني الله بها أجمل ذرية.. لم تكن مجرد كلمات تقع على مسامع أمي، أمي فقيرة الروح أبسـط شـيء يسـعدها، وعلى ما يبدو إني ورثت ذلك منها. قطعت عليهم غزلهم قائلة:

- لقد أتيت.

رحبا بي أشـــد ترحيب، وبعد أن جلســـت معهم قليلاً، قمت فبدلت ثيابي لأستلقي على فراشي، وأرى أين لين اليوم ؟
عندما فتحت الهاتف وجدتها ترســـل لي كلماتها المعتادة، أين كنتِ؟ ومن شـــاهدكِ اليوم؟ و و و... فبعثت اليها قائلة: هل تعلمين كيف يقف العاشق تحت المطر وهو يتخيل حبيبته التي تتساقط عليه حبات المطر، فيكاد يلملم جميع القطرات، يســـترق الســـمع للإيقاع الرباني العجيب، معتذراً محتجًا على إنها وقع أقدام معشوقته بخلخالها، بينما الناس تتشارد!! وكعادتها لين تشـــجعني بأيجابيتها قائلة : ســـتصـــبح حبيبتي كاتبة...

ما كانت إلا البداية

استيقظت عند السابعة صباحًا، وكنت اتمنى لو إن يدي فأس لأتعامل مع المنبه. تفقدت هاتفي لأجد رسالة من لين: " استيقظي أيتها الكسولة " ابتسمت وقلت الحمد لله هناك من سيصبرني على هذا البلاء، قمت من نومي لأغسل وجهي، ثم فطرت مع عائلتي وعدت لإرتداء تنورة قصيرة، مع قميصي الأبيض ذو الزهور الوردية والحذاء. جعلت شعري يتوسد جهة واحدة من كتفي. اخذت الحقيبة، اتصلت لين لتقول إنها عند الباب.

- صباح الخير.

- صباح النور حبيبتي، هيا يجب أن نصل بسرعة.

كانت لين ترتدي فستانها الوردي، مع حذاء عصرية، وشعرها الطويل ينسدل على كتفيها. بنظري لين كتلة من الإيجابيات، لا بل زهرة متفتحة وسط الكثير من المناجل. وأحمد الله إني أرى ضحكتها في كل يوم. وصلنا الجامعة، كانت كبيرة بما يكفي لتسع نصف طلاب بغداد، دخلنا للقسم المحدد حيث سميّ بقسم التحليلات المرضية، وجلسنا بإنتظار الأستاذ. جاء الأستاذ وهو رجل عادي بسيط، تعرّف علينا واحداً تلو الآخر، ومن خلاله تعرّفت على من سأكمل معهم الأربع سنوات القادمة. إنها البداية. نظرت الى لين وإذا بها تدوّن حتى اسم الأستاذ، وحتى عندما يقول (طلاب لا تنسون)

- آه لين كم اتمنى لو يكون الجميع بسعادتكِ.

قالت: عزيزتي ديانا ما يسعدني أكثر هو أنكِ معي.

- اممم، صدقتكِ

بعد أن خرج الأستاذ أردت أن أخرج من القاعة، فاصطدمت بإحدى الطالبات بالخطأ، فقلت لها:

- اعتذر.

نظرت اليّ بنظرة تكبر كأنها آخر من هبط من السماء، أو جف النسل من بعدها، أو لا أعلم. وسرعان ما قلت لها:

- اسحب اعتذاري.

بقيت هي واقفة ولم تنطق بحرف، رفعت حاجبي وأخذت بيد لين ومررت من جانبها كأن شيئاً لم يكن. ذهبنا للنادي لتناول شيء فكانت الساعة الثانية عشر، وبعد أن أنتهينا عدنا للمنزل، لم يكن يومًا يختلف عن باقي الأيام، شمس وغيوم وهواء، كذلك الشارع هو نفسه ولم تكن الجامعة إلا ضياع لوقتي الضائع في التفكير المفرط. نمت في وقت الظهيرة واستيقظت عند الرابعة عصراً، لأذهب لعمي بطرس.

- كيف الحال أيتها المحللة الجميلة.

- من ؟ محللة ؟ وجميلة! ولكن هذا كثير

- ليس عليكِ يا ديانا كل شيء قليل بحقك يا ابنتي.

- عمي ستجعلني أرى نفسي عليك تحديداً.

- هههههه، لا أتوقع ذلك منكِ.

- كتاب جميل.

- أجل وله خاصية جذب عجيبة.

- هل انتهيت منه ؟

- منذُ سنة.

- آه إذاً هو محضّر لي.

- أجل...

- حسناً سأقرأه ..
- كيف الحال لقد سمعت إنك التحقتي بالجامعة ؟
- بهذه السرعة ؟ ينتشر كل شيء في هذه المحلة ؟ للأسف.
- لو سمحت هل لي أن أعبر، يا حبذا لو تبعد جثتك السميكة.
- آه، حسنًا الى اللقاء
- أيّ لقاء! أخذك الله
- ماذا قلتِ ؟
- لا شيء.

ذهبت وأنا أتأمل كيف يمكن للمرء وهو من خلق الرب أن يكون مكروه لهذه الدرجة، لا أعلم ولكن لم يكن قلبي، يرتاح لسنان بل ولا أتمنى رؤيته.

- هل أصابكِ الطرش ؟!
- مؤيد منذُ متى أنت هنا ؟
- منذُ شرودكِ.
- آه لا عليكِ، كيف الحال ؟ جئت بالبشرى.
- ماذا هناك ؟
- لقد صدرت استمارة التعيين.
- مبارك يا روحي.
- أين لين لا أراها معكِ ؟
- امم ولماذا تسأل ؟
- لا فقط أنا معتاد عليكما معاً.
- ولماذا أبعدت ناظريك عني!

رمقته بنظرة خبيثة فقال: لا شيء هيا أسرعي للبيت سيحل الظلام. لم أود أن أضغط على المكابح أكثر فتركته كما هو. عندما وصلت إلى البيت وبعد أن أنتهيت من طعام العشاء وغسل الصحون، ذهبتُ لفتح شباك الغرفة فكان منظر القمر عجيباً، أنا أحب الليل لدرجة كبيرة، أحس إنه يقوم بمواساة الإنسان بل وأحيانًا أقول إن الليل عبارة عن حزن النهار، بعد مضي عدّة ساعات على نفسه. أرفقت ذلك التفكير بالهواء الذي كان عذبًا بعض الشيء، وكافٍ ليبعث القشعريرة في جسمي. بدأت أتصفح ما أعطاني إياه عمي بطرس، وإذا بها رواية بعنوان " قواعد العشق الأربعون"، رحت أقلّب الصفحات. شدتني عبارة شمس التبريزي عندما قال: (رأيت الله عندما كنت طفلاً وظننت إن جميع الرجال شاهدوه مثلي ولكن عندما كبرت أدركت أنهم لم يروا شيئاً بعد.) كنت متغلغلة في أحداث الرواية قاطعني "مسج" من لين تقول فيه: " أين أنتِ؟ إنها الثانية عشر غداً لدينا دوام" فوافقتها الرأي وخلدنا للنوم معًا. في صباح اليوم التالي وبعد ذهابي للجامعة مرّ اليوم كما هو لكن مع بعض الواجبات التي بدأت تفرض سيطرتها على واقعي، وبعدها بأيام جاء إلينا أستاذ لم أكن مرتاحة لمظهر كلماته أو طريقة تعامله، كان فظاً، سليط اللسان بل ويسخر من جميع الطلبة بدون استثناء، أعتقد إنه يظن نفسه ظريفاً. أو يا رباه ما هذه الظرافة ! بعد مرور أسبوع كامل، كنت كل يوم فيه أشتاق إلى شمس التبريزي لدرجة إني لم أعد أذهب لزيارة العم بطرس، ولو لم تكن لين معي لضعت في طريق العودة، وأنا أفكر كيف ستكون نهاية جلال الدين الرومي بشمس التبريزي. وأخيراً أوشكتُ على نهاية الرواية، وبعد الحسرات

على ما فعل ابن جلال الدين حيث قام بقتل شـــمس لم أتحمل الخبر بـل وأخـذت عينـاي تنهمر دموعهـا. كـانـت أول مرة تبكيني روايـة، بل وتأثر بي لهذا الحد. علقت صـرخة جلال عندما صـاح " قتلوا شـمسـي" بداخل قلبي، ولم أسـتطع التخلص من الحزن الذي داهمني على شـمس، لم يكن شـــمس عـاديًا بـل هو من عشـــاق الله الـذي يســـهرون معـه، عشـــاق الله في هذه الأيام كثيرون ولكنهم ينامون في الســـاعة الثامنة. بـدت مـلامـح الـحـزن عـلـى وجـهـي وكـأنـه أحـد أفـراد عـائـلـتـي، مما اضطر أبي لسؤالي:

- هل هناك شيء يا ابنتي ؟

- أبي لماذا يموت الناس الجيدون ؟

يا ابنتي لو كنتِ في بســتان فيه زهور ذابلة وأخرى جميلة في مقتبل العمر فواحة ماذا ستختارين ؟

أجبت من غير تردد: الخيار الثاني.

يحب أبي الأشــجار وزراعة الورود، حتى إنه يُنشـــد دوماً وهو يَســقيها (لاتزرع قنبلة بالشـــارع ازرع وردة) ربما كان أبي يرى الله في مزروعاته. عدت للدوام ولين معي، دخلنا مرة اخرى لدرس الأســتاذ الذي أصــبح مكروهاً لدى الجميع. ولكن قدر الله أن يكون هذا الرجل بلاءنا وليس باليد حيلة. سـأل بعض الأسـئلة فرفعت يدي للجواب، وكان جواباً خاطئاً فصـار يضحك على الجواب، بل وطريقة قولي. تصورته طفلًا يخرج لسانه من فمه ليغيض من أمامه، لا يســتحق أن يُلقب بالأســتاذ لأن كلمة المعلم تعني الرســول، ولو كـان الرســول كهـذا أُقســم إني أول من يرتـد عن دينـهِ! مرّ الوقت كأنه يمشــي على ظهر ســلحفاة، وعندما رآني شــاردة انقض عليّ بسؤال، فلم أُجب بما أراد، وأعاد الكرة. عندما فعل أول مرة أمسكت لين

بيدي وكأنها تعلم إني سـأمسـح بهِ مكان وقوفه، ثم سـأل بعض الأسـئلة أردت أن أُجيب ولكني قلت الإجابة بصـوت منخفض، فأخذ يسـخر أكثر. شـــدت لـيـن عـلـى يـدي ولـكـنـي قـمـت لـلـخـروج، فـقـال:
- إلى أين ؟
فقلت: إن الذي فعلته عيب عليك كأستاذ جامعي. من هول الصدمة كأنما وقع على رأسـه الأصـلع زلزال، أو صـعقته صـاعقة، فهم معتادون على السـخرية من المقابل، هذه الأشـكال تنتشـر بسـرعة البرق في المجتمع، وليسوا معتادين على أن تصارحهم بحقيقتهم فتاة لا يتعدى طولها 156 سم. ذهبـت من أمـامـه، حينهـا لـم أسـمع إن الطلاب قـالوا شـيئـاً، ولكن هو فقط من علّق بعـد الفـاصـل الـذي وقع بـه، وأراد نقلي إلى شـعبـة أخرى فـأنتقلـت بكـل سـرور، وأخـذت معي ابنتي لين ومجموعـة أخرى. مضـت الأيـام كمـا هي وتلـك الغبيـة تحوم حولي ظنًـا منهـا إني أُغري حبيبهـا التـافـه، إذ إنـه كـان يحوم حولي بنظراتـه. وما ذنبي يا عزيزتي عندما لا تسـتطيعين ملء عينيه وهل يسـمى هذا حبًا، لو كـان كمـا يـدعي لغض بصـره عمّن في الأرض، لا أنـتِ التي تمنعيـه بل هو يمتنع وكأنـه أخذ جرعة أوكسـجين كافية للغوص في المحيطات. بالله كفى بقيّت واقفة كشجرة تساقطت أوراقها لم تستطع حتى استجماع نفسـها، تركتها وذهبت. يحسـب الناس إن الحب لعبة أو ما شـابه، لا يعلمون بسـر قدسـيتـه، متى تنتهي تفـاهـة هـذا المجتمع يـا للـه ؟! عنـدمـا كنـا في طريقنـا للبيـت رأيـت الكثير من المتسـولين، ليس هـذا بـالأمر العجيـب، ولكن أحـدهم فـاجـأني، أسـمر الملامح رث الثياب، لاهثٌ من شـدة أشـعة الشـمس التي تضـرب على عينيه

ليبدوان كأنهما مزرعة، أو ربما تساقطت بعض حشائش الجنة على هذا الطفل، عمره لا يتجاوز اثنا عشر عاماً:

- هل يمكنكِ أن تشتري مني فلدي غداً أمتحان، وأريد أن أعود للبيت سريعاً من فضلكِ يا آنسة.

نظرت إلى يده فوجدت فيها علبة صغيرة من العلكة، ابتسمت بوجهه وقلت له:

- هل تحب المدرسة يا صغير ؟

- نعم ..

- قلت: من علمك أن تقول آنسة بهذه الرأفة ؟

- فقال: أمي. في العادة تخرج هي، فبعد أن تركنا أبي وأمي تسعى جاهدة لكي لا نحتاج أحداً، وتعلمنا أنا وأخوتي ..

نظرت إليه نظرة تكفي أن تفضح إعجابي في أمه، كنت أعتقد أن أمي فضة وحدها أم، والباقيات مجرد نساء يُنجبن أطفالاً، ولكن هذا الصغير علمني درساً لا أنساه في حياتي، فإن بعض الظن أثم من الواضح أن كل أم عراقية هي نص بل رواية بحد ذاتها، وأنها كل المجتمع بل هي مكافحة للحياة لا لا بل هي جندي خلف الكواليس، المشهد الأساسي هو المجتمع الذكوري حتى في أمثاله حيث يقولون للمرأة القوية الصامدة(مرة بألف رجال).. وللرجل عديم الشخصية أو الضعيف والذي يهين نفسه.. (هذا مرة مو رجال) مجتمع معاق ويعيق أخذت منه ما كان يبيع وأعطيته فوق ثمنه، راح راكضاً وكأني أقول له أمك عند رأس الشارع ..

- ما هذا الذي تحملينه بيديك الصغيرة، صغيرتي !؟ كيف الحال لين ؟

- بخير ! وأنت ؟

- بخير جداً.

- أجل يجب أن تكون بخير ألم يصدر أمر توظيفك.
- آَه ديانا أبعدي عيناكِ العسلية تلك.
- حسنًا ربما يوجد سبب آخر لبسمتك الآن .!.
صوبت نحوه نظرة خفيفة فقام بضرب قدمي قائلاً:
- هل ستكملون أم ستبقون واقفين.
ضحكت لين وقالت: لقد تحمصت.
أكملنا الطريق إلى بيت لين، وبعد أن ابتعدنا قلت له:
- هل تود قول شيء ما عزيزي ؟
تردد قائلاً: ليس وقته سأخبركِ فيما بعد.
عندما عدت للمنزل ذهبت الى غرفتي كي أهرب من الواقع بالخلود للنوم، وعندما استيقظت كان ظلام روحي دامس، وكأني في وسط الدجى أو في شارع النائبات، فقلت من أطفأ النور لِمَ كل هذه العتمة ؟ ساعتها انتبهت للساعة وإذا بها السابعة والنصف، أدركت حينها إني نمت حتى المساء ..!

ليالي الشتاء وعذاب حواء

في صــباح أحد أيام الشــتاء البارد، وكانت عطلة الفصــل المدرســي، اســتيقظت بتكاســل بعد ليلة جميلة قضــيتها مع لين التي كانت بزيارتي هي وعائلتها اللطيفة. قمت لأرى الضباب الذي يحتضن شباك غرفتي، لأخط عليه أي كلمة في بالي، ربما يوم مولدي لبشاعة ذاك اليوم مثلاً ..! أو أكتب أســم لين فهي حياتي تقدمت فلم ألمســه! ربما كنت ســأخربه فالبشــر بطبيعتهم يخربون ما يلمســون. ابتســمت لوجهي في المرآة، أجل هكذا أفضــل بكثير، يجب على المرء أن يبتسم لنفسه ليستطيع العيش بقية اليوم، حتى لو كان يخدع نفسه. هناك من يقول أكذب أكذب حتى يصــدقك الناس ثم صــدق نفســك، كذلك لو طبقت نفس القواعد على ضــحكتك أو عقد حاجبيك أنت من ستختار.

نزلت إلى الطابق الســفلي لأجد أن رائحة الشــاي لم تتمكن من بيتنا فحســب، بل من محلتنا ككل، هل يعقل أنها من قهوة عمي منصــور التي تعود لأكثر من عشــرين ســنة؟ أم هي من فعل أمي؟

- صباح الخير.

- صباح النور هيا الفطور جاهز.

جلسنا على المائدة لتناول الفطور، فقال والدي مبتسمًا:

- لقد بعث اليّ عمكِ إدريس برســالة، حيث ذكر إن حســام ســوف يتزوج عن قريب، وقد قام بدعوتنا نحن وعمك بطرس والخالة مريم، يجب أن نستعد للرحلة.

العم إدريس والخالة مينا، حســام، ريم، ريام، عائلة من منطقة البصــرة من القرنة، تحديداً في قرية طلحة. العم إدريس هو صــديق والدي

منذُ الجيش، عندما سجن مع أبي في الوحدة العسكرية المغاوير، وهما أصدقاء لدرجة جعلوا من العائلتين كالأقارب. حسام، ريم، ريام جميعهم لطفاء، كنا نلتقي في مناسبات كثيرة.

- حسنًا يا أبي ومتى نذهب ؟

- في الغد إن شاء الله.

جمعت ملابساً تكفي لبقائي هناك مدة بقائنا، وقلت للين بما حدث. في صبيحة اليوم التالي اجتمعنا لنركب السيارة، جلس العم بطرس بجانب أبي ثم وضع نديم في حجرة، وجلسنا نحن الثلاثة في الخلف، كان الطريق طويلاً ولكن صحبة عمي بطرس والخالة مريم وبعض الأغاني القديمة هي فرصة جميلة أحظى بها. أخذ الجو يمطر لم أكن أنظر إليها، أنها أمطار فحسب، بل كنت أتمنى لو أستنشقها حتى آخر قطرة، كانت أيضاً تذكرني بلين فهي تحب المطر كثيراً، وأما المناطق الزراعية فلا شيء يوصف جمالها. استقبلنا العم إدريس وأخذنا لبيته، وهناك إلتقيت بالجميع. ألقينا السلام بين بعضنا ثم دخلنا لغرفة استقبال الضيوف، بيتهم جميل وكبير، مكوّن من عدّة غرف وحديقة عادة ما تسمى بالبستان الصغير. سرعان ما أخذتني ريام التي تقاربني في العمر، لغرفتها هي وريم التي كانت في حدود الثالثة والعشرين من عمرها.

- لقد كان الطريق طويلاً، هيا استريحي قليلاً.

- ريم هل تمزحين ؟ أريد رؤية النهر، والمزروعات و..

- حسنًا ولكن نتغدى ثم نقوم بفعل ما بخاطركِ.

بعد أن انتهينا من الغداء، وقمت لمساعدة البنات في أشياء المطبخ، قمنا بأعداد الشاي العراقي (المهيل)، جلس الجميع بالقرب من المدفأة

النفطية والنافذة، حيث يمكنك أن تلمس البرد بخيالك. لم يكن هناك أجمل من هذه الجمعة، فالجميع سعيد ومستعد لزفاف حسام. بعد انتهائنا في الساعة الرابعة ذهبت مع البنات للمزارع والنهر الذي بجانبهم، لا أستطيع وصف كمية الجمال في هذا المنظر، بل وكيف أبدع الله في الخلق هكذا. شعرت كأنني وحدي فقط في هذا الكون، وكأني أطير فوق السحاب لأحط ببقعة سقطت من الجنة. قطع اتصالي الذهني مع الطبيعة اتصال هاتفي من لين، وهذا ما كان ينقص روحي.

- كيف حال حبيبتي هل وصلتِ ؟

- أجل منذُ الظهيرة.

رفعت رأسي وإذا بذاك يقف أمامي ...من!!!

- آه يا ديانا إنه أبن عمي وصديقه.

صدمت لدرجة أني صرخت بأذن لين: مااااذا ؟ ؟!!

قالت لين: ما بكِ ؟

قلت لها: حسنًا سأتصل بكِ فيما بعد.

أقفلت الهاتف، قالت ريم:

- هل هناك شيء ؟

- فقلت: كلا لا شيء مهم.

كيف جاء سنان إلى هنا ؟ ما الذي جاء به ؟ آه يا الله لماذا لا تدوم الأشياء الجميلة ؟ أتضح فيما بعد إنه صديق ابن عم حسام، نظر إليّ فاستدرت للنهر، وكأني لم أرَ شيئاً. عدنا للبيت لإتمام التحضيرات. في وقت العشاء كانت الخالة مينا قد قامت بطهي الأكلة التي نعشقها ألا وهي (الدولمة) أكلة عراقية مشهورة جميع العراقيين يحبونها.

بعد أن فرغنا، ذهبت للحديقة لأن البيت يضج بالناس، وأردت أن أتصل بلين، وعندما حادثتها عن سنان ضحكت وقالت:
- ربما تكون هناك علاقة في الطريق.
- حباً بالله ماذا تقولين !!؟ أقول اشمئز فتقول حب، سامحكِ الله.
أنهيت المكالمة وأردت الدخول للمنزل، وإذا بسنان مرّحباً، استدرت لأراه واضعًا يديه فوق بعضهما، فقال:
- هل جلبتِ معكِ كتبك ..؟!
- لا فبعض الوجوه لا تساعد على القراءة.
عدت أدراجي فوجدت ريام ومعها شاب، ولكن بالكاد أراها تتحمله، تعذرتُ وأخذتها بحجة أني أريد شيئاً منها. جاءت إليّ وكأنها سمكة خلصتها من شبكة. ريام شخصيتها ضعيفة، وطيبة، لها صديق كان معها في المعهد يحبها كثيراً وقد اتفقا فيما بينهما على الزواج، عندما تتيسر أموره.
- ديانا لقد أنقذتِني..
- ولكن مِمَ ؟ ؟
- إنه ابن عمي الذي رأيناه على الشاطئ.
- هو الذي كان مع سنان !
- ماذا ؟
- لا شيء، ماذا يريد منكِ ؟
- منذُ أسبوع جاء من الجيش، وبعث زوجة عمي لخطبتي ولكني رفضت، ومازال يحوم حولي ..
- خلصكِ الله يا روحي.
- ههههه، شكرًا.

في صـــباح اليوم التالي خرجت لأتمشـــى قريباً من النهر، كان الجو بارد والشـمس في ولادتها الأولى، أخذت نفسًـا عميقًا ثم تبعه زفير. رحت أتأمل في زرقة السـماء واتسـاعها، أتسـاءل كيف أبدع الله من جديد؟ وكيف له أن لا ينام طوال الوقت؟ عينه على من في السـماء ومن فوق هذه الأرض، كيف له أن يكون في كل مكان في نفس اللحظة؟ وأن يســمع حتى أنين النملة كما قال أبي ذات يوم. رأيت فلم(still believe) لفت انتباهي عندما قال جيرمي كامب: الرب واسع بلا نهاية وهذا رسمه، نحن نرسم بالفرشاة وهو يرسـم بمليار نجم وترليون مجرة، هو يعرف أسـمي ! ولديه قدر مكتوب لي فقط!.

شعرت بأن هناك شيئاً ينزلق من تحتي، أردت أن أتمسك حتى ولو بورقة لأني أدركت أني سـوف أقع في النهر الجاري، رحت أصـرخ ولكن من دون جدوى، انحدرت إلى أعماق النهر وكأن هناك شيئاً يمسك بقدمي ويسحبني، بدا كل شـيء ينعدم من أمام ناظري، فقط الماء كان يحتضنني وكأني معشوقته. رحت أناجي الله علّه يسمعني، ولكني كنت ألتقط أنفاسي الأخيرة، غزت صورة لين عقلي وأنا أقول يا لله كيف سأتركها فجأة، كان هناك شاب لم أتمكن من رؤية ملامحه بوضوح نزل الى النهر وبدأ يسبح ثم...

- هيا استيقظي...

داخلي مملوء بالماء وعيوني مشوشة، لم اسمع سوى:

- وأخيراً، هل أنتِ بخير يا آنسة؟

إنه شـاب في نهاية العشـرين من عمره، صـحوت شـاكرة له معتذرة على ما سببته له من تعب، فقال:

- لا عليكِ أسرعي لتبديل ثيابكِ، ستمرضين.

- قلت: وأنت ؟
- فقال: أتدبر أمري.
قمت من هولي لتسقط عيني في عينيه السوداويتين، أخذ ينظر إلى داخل عيني، فرحتُ أتخبط في الكلام، وكأني لازلت أغرق. مشيت سريعاً لأصل إلى البيت وأدخل الغرفة، حمدًا لله مازال الجميع نائماً، بدلت ثيابي ودخلت سريري من جديد، ولازلت في هول صدمة الغريقين! إنها أول مرة يكون الموت قريبًا مني لهذه الدرجة، ولم أستطع أن أفعل شيئاً لنفسي، سوى الدعاء للرب الرحيم الذي أرسل إليّ ذاك الشاب، ولكن من هو ؟!
في حدود التاسعة استيقظ الجميع، وبعد الفطور الذي لم أتناول منه سوى الشايّ (الشايّ له نغمة خاصة على معدتي أثمل به فهو خمر الفقراء). قمنا لنستعد لتجهيزات العرس، وأصبح المكان يضج بالنساء بمختلف الأعمار، لأن الرجال غادروا (من عاداتهم). الضجة الأكبر هي ضجة المكياج والزينة، حان الوقت لنقيم العرس، رحت فارتديت فستاني الذي يعلو ركبتيّ مكشوف الصدر، لونه مائل للماروني، وارتديت الكعب العالي بطلب من أمي، ولم أجد داعٍ لرفض هذا الطلب. وضعت القليل من المكياج ووضعت ريم لعيني الكحل و" المسكار" و" الايلاينر" كما أوصتني لين ..رباه أنقذني من هذا !! وضعت شعري على جانب كتفي، فأخذ ينسدل تحت خصري بشبرين، وأخرجت غرتي التي غطت وجنتي، جاءت والدتي لكيّ تُصدم واقفة صامتة، قلت:
- ما بالكِ يا أمي ؟
- قالت: يا أبنتي أشكر الله الذي رزقني بكِ، أنا أعتقد أنك أجمل حتى من العروس.

- ههه أمي يكفي هذا المديح!
نادت أمي من فورها على خالتي مريم، لتزيد عليّ بتلك الترتيلات المسيحية مع بعض آيات الأنجيل. خرجنا بعد ذلك لأرى الصالة عبارة عن عرض لجمال النساء العراقيات، وخاصة تلك المشغولة في المطبخ من الأمهات طوال الوقت، وتلك التي تذهب للحقل وتقوم بأعمال شاقة فقط لأنها خُلقت في بيئة كهذه، بدأن البنات بالرقص، لم يكن ذاك الشيء من ترتيبي فماذا يتوقع من فتاة كل همها لين ومكتبة العم بطرس وروايته! خرجت قليلاً للحديقة بعد أن وضعت شالاً أسود أستر به جسمي، لأصطدم بأحدهم وتقع عيني بعينه، من إنه نفس الشاب ! أخذ ينظر إليّ من دون أن يبعد ناظريه، فأنتبهت لنفسي وإذا بالشال قد وقع عن جسمي، عندما رآني مرتبكة أنزل رأسه فرفعت الشال من جديد.
- كيف أصبحتي ؟
- بخير والفضل يعود لك.
- لا الفضل يعود لحسام، لقد أتيت لحضور زفافه.
- ولكن من أين تعرف حسام ؟
- هو صديقي ولكن أنتِ ماذا ؟
- إنه إبن صديق والدي، العائلتان بينهما علاقة جميلة.
في هذه الأثناء جاء سنان ليصرخ قائلاً: ما الذي أخرجكِ ؟
- عفواً ولكن من أنت لكي تسألني ؟!
أخذ يشد على يدي لكي يسحبني، دفعته قائلة: لا تلمسني.
ولكنه أستمر في جري، فتدخل ذاك الشاب بسحبي ناحيته.
- من أنت يا هذا ؟

نطقها سنان وكان ينوي ضربه، فقال له:
- أنا آزاد صديق حسام.
فتدخلت لأنقذ الموقف: آزاد حسام بأنتظارك.
ثم ذهبنا ولا يزال آزاد ممسكاً بيدي، فسحبت يدي بإرتباك شاكرة له موقفه، قال لي: من هذا؟
- لا يهم عليّ العودة.
ذهبت مسرعة فصرخ خلفي: ولكن ما اسمكِ؟
لم أجبه وأخذت أبتعد عنه، لا أعلم بِمَ أفكر بغيرة سنان التي لا أعلم مصدرها، أم بالصدفة التي جعلتني ألتقي به، واسمه آزاد أيضاً!
بعد مدة من ذهاب الرجال بصحبة العريس ليقوموا بجلب العروس، كنت شاردة الذهن حتى سمعت الخالة مينا تقول لإحداهن:
- إن ابنتي هي من تحدد شريك حياتها، وأنا وأبيها علينا مساعدتها فحسب.
فقامت تلك المرأة غاضبة لتقف في الجانب المقابل. جاءت العروس فلبسن البنات أحجبتهن وملابس ساترة، دخل حسام وبيده العروس، ومن ثم النساء الباقيات يقال بأنهن أقارب العروس، وتم أكمال الزفاف على أكمل وجه، وفي الليل خرجت أبحث عن أبي أريد هاتفه لإن هاتفي قد نفذت بطاريته وأردت الإتصال بلين، وإذا بآزاد يقول:
- ألم يحن الوقت أن أعرف اسمكِ؟
نظرت إليه وقلت: ليس من المهم أن تعرف! بقيّ واقفاً مبتسماً وقال: شخصيتكِ قوية.
- أتفق.
- ومتكبرة!

نظرت إليه بغضب: ليس من شأنك.

ثم ذهبت بعيداً، كل الرجال متشـــابهون لا أعلم لِمَ، ولكن هرمون الغباء دائماً ما يكون مرتفعاً.

- مع من تتكلمين أميرتي ؟

- هاه أبتي الحبيب، لا شيء كنت أبحث عنك.

- لماذا ؟

- أريد هاتفك.

- خذي.

أســرعت للعلية واتصــلت بلين، فرويت لها كل ما حدث، أخذت تبكي ولم أستطع إيقافها.

- حبيبتي أقسم لكِ إني بخير، لا داعي لبكائك

بالكاد استطعت تهدئتها، ووعدتها إني سوف أقوم بإرسال صور لي لا تتكرر في حيـاتي كـل يوم. ثم أقفلـت الهـاتف لأعود لمســـاعـدة ريم وريـام.

آزاد:

مـا هـذه الفتـاة؟ في البـدايـة تغرق فـأنقـذهـا، كـأني أخرج حوريـة بحر، ثم أعود لألتقيها في زفـاف حســـام وكأنها أميرة تـائهـة في ريف المـدينـة، وشـــعرها المنســـدل كأنـه الظلام الـذي لم يكن منبعثاً حينها من الليـل بل من شعرها! ولمسة يدها ليست عادية بل دافئة جداً. ما هذا يا آزاد؟ عد لرشـدك أنت أين والنسـاء أين؟ ثم إني أعتقد إنها متعجرفة بعض الشـيء أو متكبرة، لماذا لم تقل لي أسمها؟ لا يهم ولكن، شعرت أن أحدهم أمسكني من ذراعي، ألتفت لكي أرى ..

- أنت؟ ماذا تريد يا هذا؟

- أســمع أيها الوســيم، أذا رأيتك تقترب من ديانا مرة أخرى لن أرحمك، هل تفهمني ؟
- من تهدد أنت ؟
أبعـدت يـده عني لأنظر لعينيـه التي كـادت أن تخرج من وجهـه، أدركت حينها أن تلك الفتاة تدعى ديانا وهذا يحاول...
- ومن أنت لكي توجه لي كلاماً كهذا ؟ بصفتك ماذا ؟
- حبيبها.
- ولكنكما لا تبدوان كهذا الليلة، من تخدع أنت يا عزيزي ؟
قلتها بنبرة خبث لا أعلم ولكن قلتها ..!
- كنا متخاصمين ما شأنك أنت ؟
- آه متخاصمان ..! حسناً أبتعد عن طريقي.
تركتـه خلفي كجـدار متجمـد من شـــدة البرد، كمـا رحـت أفكر كيف تقع فتـاة مثلهـا بحـب شـــاب مثـل ذاك الأحمق الهمجي !؟ رحـت اضـــرب حجراً صـــغيراً تحـت قـدمي لأقـول مـا شـــأني ؟ ركبـت سـيـارتي التي اسـتـأجرتهـا من صـــديق لي لأعود إلى بغـداد، عندما وصـلت كان الجو ممطراً وقد غسـل كل الشـوارع، وفي نفس الوقت أغرق الفقراء، إذا كنت رحيماً أيها الرب الذي في السـماء لماذا تفعل ذلك ؟! دخلـت إلى منـزلي الـذي كـان يرتـكـز عـلى صـــورة أمي الـمعلّقـة، ويتنفس رائحتهـا التي تقوم بحمـايتي، ومنـاجـاتهـا للـه الـذي أخـذ والـدي وهي تحبـه، حتى إني كثيراً مـا أغضـــب منهـا لأنهـا تقـدســـه أكثر منـا. استلقيت على سـريري وفجأة طرقت باب شـرودي بيدها الناعمة، ديانا ..!

البصرة _ القرنة ...
أخـذني شــوق جـامح لبغـداد، ليـن، المكتبـة، وغرفتي الصــغيرة... لم أعتد على تركهم هكذا، رحت انظر الى المطر يا ترى من أي مدينة هو؟ ومـا شـــأنـكِ؟ ولكني كنـت فظـة معـه لمـاذا لم أخبره بـاســمي؟ ومـا الـداعي يـا ديـانـا؟ أوقف صــراعي مع كبريـائي رنيـن هـاتفي.
- أهلاً لين
- كيف حالكِ؟
- بخير للغاية.
- هل مازال ألم الغرق بداخلكِ؟
- لا يا عينيّ أنتِ، ليس بي شيء.
- حسناً متى تعودين لبغداد؟
- بعد يومين..
- كثير، هناك ما أود قوله.
- ماذا هناك يا لين؟
- سأقول لكِ حالما تعودين، الوقت متأخر هيا أخلدي للنوم.
- ولكن...
- من دون مناقشة هيا ..
- حسنًا أحبكِ...
- وأنا أيضاً أحبكِ.
في صباح اليوم التالي استيقظنا على ضجة كبيرة، من قبل عمر أبن عم ريم وريام.
- ماذا هناك؟
- اسمعوا جيداً، ريام لي ولن تكون لغيري.

- ولكن يا بني ما تفعله عيب، هناك ضيوف في المنزل.
قالها العم إدريس وهو يحاول تهدئة الوضع، خرج حسام من غرفته مسرعاً ليرى ما سبب الضجة، وعندما فهم الأمر أقترب من عمر ثم أخذ يضربه حتى شُفي غليلي، ولد منحط، متسلط سرعان ما جاء أباه الذي لم يكن يفرق عنه بشيء، ليصرخ قائلاً:
- ريام لا تكون لغير عمر.
راحوا يتناقشون إلى أن تدخل أبي والعم بطرس، ليبعدوا عمر ويدخلوا إلى ما يسمى بالمضيف. ألتفت أبحث عن ريام فلم أجدها، ذهبت إلى الغرفة لأجدها مكوّمة على نفسها تبكي وتندب حظها. أخذت أهدئها بأن لا قانون يجبر أي إنسان على ما لا يُريد، ترامت بحضني لتقول:
- إنهم ليسوا بشراً يا ديانا، هنا الفتاة لا يمكن أن تكسر كلمة والدها.
- ولكن أباكِ لا يغصبكِ على شيء.
- من المحتمل إنه قد وعد عمي بشيء، وتسمى هنا نهوة (حيث يطلب العم الفتاة منذ صغرها، ليكبر أبنه فيقول إنه قد نهى عليها)
- ولكن أباك رجل عاقل،
- هو يحب أخيه جداً.
- لالا تخشي شيء ستُحل بأذن الله ..
- ولكن أياد لم أخبره.
- لا تشغليه لنرى ماذا سيقول أهلك.
فجأة طرق الباب حسام، وقال:
- ريام لن تغصبي على هذا الزواج، إلا على جثتي يا أختي.

فرحـت لريـام على هكـذا أخ متفتح البصـــيرة، وليس كبقيـة الرعـاع الـذين تحكمهم العـادات والتقـاليـد التي دفنـت المرأة تحتهـا. خرجنا لنجد العم إدريس بحيرته، يسأل ريام ولكنها رفضت رفضاً قاطعاً، فـقـلـت لـمـاذا لـم تـنـطـق أو تـقـول شـــيـئـاً بشـــأن أيـاد ! أخذ أباهـا يـدور في حيرتـه، ثم جلس على الأريكـة القريبـة منـه ليقول:

- والآن كيف سأقول لأخي هذا؟ وماذا سيقول عني الناس؟

نظر أبي إلى عينيـه وقـال لـه: إدريس غـداً عنـدمـا توقعـك الـدنيـا لا يقف معك إلا ابناؤك، إياك يا أخي أن تجبرهم على فعل شـــيء فقط لإرضاء الناس.

قال العم بطرس: أنا كانت لي حصة بتربية ديانا، وعندما تعرضت لحادث وقفت معي، فهي ابنتي ولم يقف معي الناس. أحنى العم إدريس رأســه، وأتجه لأبنته:

- آســف يـا أبـنـتي لـم فـكـرت ولـو لـلـحـظـة إنـي ســوف أفـرط بـكِ.

راحت ريام تبكي في أحضـــان والدها، وأصـــبح صـــباح العرس مؤذياً، فقد قالت أميرة:

- أعتقد أن وجهي لم يكن خيراً عليكم!

ضـــحـك الـجـمـيـع وراحـت تـتـرامـى في أحضـــان الـخـالـة مـيـنـا، فـي هـذه الـلـحـظـة انـتـبـهـت إن ريـم لـم تـكـن مـوجـودة، ذهبت للغرفة لأجدها تتكلم عبر الهاتف وهي تقول:

- إما تلحق أو لا.

ثم أغلقت، انتبهت إني قد أتيت، قلت:

- مع من كنتِ تتحدثين؟

- فقالت بهمس: أياد ...

ذهلـت على مـا فعلـت، فقـالـت: لا هـذا وقتـه، فعمر قـد تمـادى كثيراً ولكن إياك أن تقولي لأي أحد اتفقنا.
ابتسمت لها: حسناً.
- اعذريني لقد استخدمت هاتفكِ في هذه المهمة.
- ههههه.. لا عليكِ.
عنـد الظهيرة جـاءت امرأتـان أحـداهمـا كبيرة والأخرى متوســطـة العمر، لـتـقـولا إنــهـمـا قـد جـاءتـا لـخـطـبـت ريـام لأبـنـهـم أيـاد.
قفزت ريام أمام أمها وأمامنا: أجل أجل يا أمي موافقة.
- ولكن ماذا؟ كيف ؟! لقد رفضتي للتو أبن عمك.
أحمرت وجنتا ريام وراحت تقول: أمي أنا أحب أياد مذ كنا في الجامعة.
- ولكن ماذا؟!
- أرجوكِ يا أمي، أياد أحسن رجل في البصرة كلها، أرجوكِ ..
أخـذت الخـالـة مينـا تفكر وذهبـت تسـتشـير خـالتي مريم وأمي، فكان جوابهن واحد وهو أن تتبع رغبت أبنتها، فهي ليســت صــغيرة، ولـكـن لا تـبـلـغـي إدريـس الآن دعـي الأمـر يـأخـذ مـجـراه.
في صــباح اليوم التالي وقد كنا عازمين على العودة لبغداد، ولكن الخالة مينا طلبت من أمي والخالة مريم تأجيل السـفر لحين حلّ هذه المشـكلة.
الـقـوانـيـن الـعـشـــائـريـة ظـالـمـة بـمـا يـكـفـي لسـحـق أحـدهـم، فالبعض يضـع فوق رأسـه ما يسـمى(عكّال) فيحكم ورأسـه خالٍ من أي عقـل، فقط في قـاموس حيـاتـه أن يطبق مـا رأى من أجداده. ولكن ريـام محظوظـة فـأبـاهـا لو كـان عنـد بـاقي البنـات لمـا ظُلمـت أحـداهن أبـداً، رغم إن القانون قد منع هذا الشــيء، فنحن في القرن الواحد والعشــرين،

ولكن القانون أحياناً بل أغلب المرات لا يساوي شيء، إذا تم مقارنته بالعادات السخيفة التي فرضوها وكأنهم آلهة !
بعد يومين فاتحت الخالة مينا العم إدريس في الموضوع، فقال:
- يعود الشأن لريام، هل هي موافقة ؟
- فقالت الأم: أجل..
- فقال: نذهب للسؤال عنهم لنرى..
بعد أن تم كل شيء بأحسن وجه، جاء أياد وأبوه وتكلموا في التفاصيل، وعندما ذهب حسام ليخبر باقي أعمامه أعترض أبو عمر ليثير الضجة، قائلاً:
- أبني يُريدها مذ كانت طفلة، وكنا قد تكلمنا بذلك.
- قال العم إدريس: ساعتها لم أكن بهذه الجدية، ولم تكن أبنتي قد نضجت، هي صاحبة القرار الآن يا أخي، ولا أستطيع أن أغصبها على شيء.
- فقال بستهزاء: ومتى كان للبنات رأي ؟
- مذ خلق الله الكون ووضعها موضع الرجل في هذه الحياة، هل نسيتم من أنتم أمام الله لكي تقوموا بتحديد مصيرها، أم لأنها أنثى، لقد تمنيت من الله أن أرزق بطفل ولكن شاء أن أكون بلا ولد، ولكني أملك عائلة جلال وهي أثمن أشيائي مع زوجتي، فأحمدوا الله على مارزقكم ولا تردوا النعمة بفرض سيطرتكم على الغير، هناك الضعيف والقوي ولكن يسمع الله الجميع فإياكم من ظلم مخلوق لا يسمع أنينه إلا الله.
قال عمي بطرس كلامه متعصباً على ما يحدث، أعتدل أبو عمر ليضع رأسه في الأرض ثم نظر إلى أخيه وهو يقول:

- ريام أبنتي كما هي أبنتك، وسعادتها من سعادة أطفالي، وسنبقى أخوة ونبعد الشيطان من بيننا، وليقدم الله ما فيه الخير.
ذهب ولم يصدر الجميع أي صوت، حتى نطق العم إدريس يتشكر عمي بطرس، وقال للخالة مينا أن تتصل بأهل أياد لإكمال الخطبة.
في صباح اليوم التالي عندما جاء أياد وأهله وكان الجميع سعيداً، ولكن ومن غير سابق إنذار دخل عمر وبيده سلاحاً ينوي بأن يضرب أياد، سرعان ما أمسكه أحدهم من خلفه ليقول:
- لا عليكم سنهتم به.
لقد كان حسام غير مطمئن لبرود الوضع، وأخبر أصدقائه المقربين للتحضير لأيّ طارئ، قاموا بتسليمه للشرطة حتى تنتهي مراسيم الزفاف، وقد أعتذر حسام من عمه فقال:
- لا عليك، حسناً فعلت، فأنا أيضاً لا أقبل بأن تُخرب سعادة أبنتي ولا أريد خسارة ولدي.
جاء وقت الغداء واستعدينا لتوديع البصرة، ترافقنا دموع الفرح والحزن التي امتزجت مع ليالي الشتاء، فقال أبي:
- يجب أن أذهب لقد بعثوا أليّ، يجب أن أعود وبعد أن ألقينا السلام متمنيين لهم العيش بسعادة، ومسحت خالتي مريم بصليبها فوق رأس العروس، ثم ودعنا الجميع لنعود إلى موطننا الأصلي، نظرت إلى النهر وذكرت آزاد وعينيه السوداويين، ابتسمت وقلت وداعاً...

السر الصغير

بـعـد عـودتـي إلـى بـغـداد وقـبـل أن أســـتـنشـــق هـواء دجـلـة، جاء مؤيد وهو يحمل نفســـه على كفيه، لم يكن من صـــفاتي المراوغة فقلت له:

- هات ما عندك.

- فقال: ديانا لقد فعلت شيئاً!

- ولكن ماذا ؟

- منـذ زمن وانـا أحـب لين، وأردت أن اخبرهـا بعـد أن تكبر قليلاً، ولـكـن فـي ظـهـر أحـد ألأيـام الـتـي قضـــيـتِـهـا فـي الـبـصـــرة، رأيتها تجلس على دجلة ســـارحة، جاء أحدهم فتعرض لها فوقفت بوجهه، فقال وما صلتك بها صرخت قائلاً: حبيبتي.

- أكمل ..

- عندما ذهب الشـــاب كانت لين مســتاءة، قالت ليس من حقك أن تقول هذا وتتخذ من نفســـك حبيباً لي، وذهبت من دون أن تلتفت خلفها، كانت غاضبة.

حبســـت أنفاســي نظرت إليه بغضــب، ثم ضـحكت بهدوء، أرتفع صــوتي ليضج في أرجاء الفناء..

- آه مؤيد حسبتك قد ارتكبت جريمة يا بني.

- فقال لا تضــحكي بســخرية مني، أرجوكِ أنقذيني لا أريد أن اخســـر لين يا ديانا.

- لين ليســـت فتـاة عـاديـة، بـل وحتى لا تؤمن في حـب الرجـال، وتكرهه أيضاً لما ترى في المجتمع من كاذبين.

- ولكن أنا لست كذلك، وأنتِ تعلمين وسأتجه إليهم بأمي فوراً.
- لا توقف دعني أتحدث إليها، ولكن خذ قسطاً من الراحة أرجوك.
- حسناً.

أفرحني هذا الموضوع، إذا صدق ظني فأنا أستطيع أن آمن على لين معه، فمؤيد أكثر من أخي. في الليل جاءت لين وعائلتها لزيارتنا، صعدنا أنا ولين للغرفة أخذت تسألني عما حدث في النهر، بل وأجهشت في البكاء، كنت أرى الخوف في كل دمعة تذرفها، ولا أستطيع لومها، فلو كنت محلّها لمتُ من رعبي عليها.

- إذا أحبكِ الله فأنه سيرسل لكِ صديقاً كهذا.

قلتها لها وأنا أبتسم ثم أخذتها في الحديث، لتقول أنها كانت تذهب لمكاننا على دجلة كلما أحست بالإشتياق إليّ، وهنا أمسكت بها وقلت لها:

- ثم ؟
- ماذا ؟

رحت أتفقد أشيائي: ممم هل رأيتِ مؤيد ؟

- ديانا يبدو أن مؤيد سبقني أليس كذلك ؟
- في الحقيقة بلى، أخبرني بكل شيء وأنا أعلم ما هي ردة فعلكِ تجاه هذا الأمر، ولكن مؤيد أخي أيضاً لماذا لا تعطيه فرصة ؟ ؟
- أبداً ديانا.
- كما تشائين.

طلبت من والد لين أن تبقى عندي هذه الليلة فوافق.

- لين هل تعلمين ..؟
- ماذا يا حبيبتي ؟

- اشتقت لليالي بغداد، لرائحة شايّ، لمكتبتي، وأسئلتي، هنا حتى الهواء يختلف، السماء، القمر، كل شيء.
- وأنا ؟؟
نظرت إليها وإذا بها تضع يدها على خصرها مرتكزة على السرير، ابتسمت ورحت أطبع على جبينها قبلة وكأنها آخر ما تبقى مني.
- وهل للشاي طعم من غير عينيك؟ أم لليالي بغداد وجود لولا قمري ؟!!
- سوف أصدق وأمرر عثرتكِ هذه المرة، هيا تعالي لتنامي أنتِ متعبة من السفر.
- حسناً أفسحي المجال.
أرتميت بين يديها لأحيا من جديد في بغدادي، أغلقت عيني وباتت تلاعب خصلات شعري بيدها الناعمة وكأنها تمرر بكلمات رواية على مسمعي، أو تقوم بوضع أغنية قديمة لتهدئتي، ولم أستيقظ ليلتها حتى الصباح... استيقظت صباحًا فتحت عيني لأرى لين بجانبي، أطلت النظر إليها، أفتش فيها عن نفسي وكأني أفتش بجريدة الصباح. قمت من على السرير رفعت شعري ورحت أحضّر الفطور، كان الجميع نائمًا فسمعت الخالة التي تنادي على (القيمر العراقي والكَاهي) خرجت مسرعة وكان الجو بارداً، ابتسمت وقلت:
- صباح الخير يا خالة، أريد زيادة على ما تعطين لأبي في كل مرة.
وإذا بها تنظر لي بعينيها الخضراء وذاك الوشم أسفل فمها، وبشرتها التي تسلق تعب السنين إليها، كأنه يتغزل بها، أعطتني ما أريد مع كلمات كانت أجمل من قيمرها، وابتسامة تكاد تكون ملموسة. أخذت ما أعطتني وبالكاد أخذت مني النقود، يا الله كم لازالت الدنيا بخير ..!

ذهبت لأعداد الفطور، استيقظت أمي تسأل عن سبب هذا النشاط !
- يا حبيبتي يجب على الإنسان أن يكون كذا وكذا ..
ذهبت لتوقظ أبي وذهبت لإيقاظ لين، أزحتُ الستارة عن النافذة:
- حبيبتي هيا استيقظي.
قلتها بهمس وأنا أمسح على رأسها، وأمسك بيدها وكأني أوقظ طفلة لا فتاة في العشرين من عمرها.
- صباح الخير.
- صباح النور هيا الفطور جاهز.
- حسناً.
نزلنا معًا: واو ما هذا اليوم يجب أن يسجل في التاريخ هل هو تأثير لين؟ ؟
ضحكت قائلة: هو كذلك يا أبي.
فقال: أبنتي لين لماذا لا تبقين معنا؟ أليس هذا أفضل؟
ضحكت لين ودخل مؤيد حينها.
- صباح الخير.
- صباح النور.
لم تتمالك لين نفسها ونهضت قائلة: الحمد لله يجب أن أذهب لقد اتصلت والدتي تطمأن عليّ.
- حسنًا بنيتي سأوصلكِ، ولكن يا عمي لا أريد أن أتعبك.
أحسبها ديانا تريد التفتل في بغداد بعد كل ساعة شرود ذهنية.
- ولكن أبي لماذا تفضحني الآن ؟!
ضحكت لين ولكنها لم تطق البقاء، أما مؤيد فقد خيّم على ملامحه الحزن، بل أصبح وجهه خريطة متاهات. عندما ذهبت أمي للمطبخ وأبي للسيارة نزلت لين أمامي، فأشرت لمؤيد أن يكلمها،

فوقف مذهولاً بشـــكل يكفي ليلفت النظر إني أقوم بدفعه فقال متلكئاً:

- أنا أعتذر يا لين و..

- لا عليك لقد نسيت.

ذهبت لين لأبي وبقي مؤيد في مكانه ينظر وراءها.

- لا عليك يا أبن عمي (الي يريد الحلو يصبر على مره).

مروري بالقدر

انتهى الشــتـاء مع نهايـة العطلـة النصــفيـة، فمن المعروف إن العراق يملك مناخـاً صــيفيـاً مســيطراً لـدرجـة الســيـادة على بـاقي الفصــول. لا تـزال نـفســي تشـــعـر إنـهـا فـي بـردٍ قـارص مـن الـداخـل، مع الكثير من الأفكـار المظلمـة، لازلـت أدور حول بعض الكتـب. كـان صــبـاح يوم الأحـد حيث اتجهت مع لين للذهـاب إلى الجـامعـة، كان الجو يكفي للهروب منه تحت ظل أي نخلة ! بعد أن قضــينا يومنا جـاء نهـايـة الـدوام بيـان يقول، أنـه يجـب على الطلبـة التوجـه لأحـد المســتشــفيـات لغرض التـدريـب، لـم يكـن الأمر صــعبـاً علـيّ، بل أني لم أكن متحمسة. نظرت للأعلى وقلت في نفسي، يا رب كيف يرغب من خســر شــيئاً بباقي الأشــياء، وأنا أشــعر أن كل شــيء فقد لذته، كنت قد سهرت على ذلك الحلم، ومرضت، وبكيت، وصحوت على وهم !

- ديانا
- أجل لين.
- يكفي يا عزيزتي يجب أن تخضعي لإرادة الله.
- خضـعت يا عزيزتي ولكن الإنســان يواجه صـعوبة في تقبل بعض الأمور التي خسرها في معركة مع نفسه.
- ولكن أنا لازلت معكِ!
- لحسن الحظ يا لين ..

عـدت للمنزل وتلقيـت رســالـة هـاتفيـة بـأن ريـام قـد تزوجـت، فرحـت كثيراً لهـذا الخبر، وأخيراً أنتصــر أب وأبنتـه على العـادات التي شــوهـت وجـه الإســلام، أخيراً أحـدهم تجـاوز المجتمع الـذكوري.

- حبيبي نديم ماذا تفعل هنا ؟
رفعته بين يدي فأخذ يضحك، لا شيء أجمل من الأطفال في هذا العالم المقرف. بعد عدّة أيام أجرينا الإختبار النهائي، لنذهب ونباشر في المستشفيات.
في صباح أحد أيام سبتمبر استيقظت بتثاقل، لم أكن مستعدة لجو المستشفيات بعد، ارتديت قميصي الماروني وبنطالي الأسود، وحذائي الرياضي الأبيض ذا الشريط الأحمر، قمت بشد شعري بشكل طبيعي، وعلى اتصال لين نزلت للأسفل.
- صباح الخير..
- صباح العافية.
للصباح نكهة أخرى مع لين، دائماً ما تشع نشاطاً وأملاً وحيوية. تكاد أن تكون آلهة تفاؤل.
- سأقول شيئاً.
- قولي يا ديانا.
- أنت تعلمين أن مؤيد في هذا المشفى، أليس كذلك ؟ أرجوكِ دعيني أكمل، مؤيد شاب خلوق يا لين، هو ليس كباقي الشباب، دائماً ما كنت أنظر لحبه لكِ بصمت، عندما يراكِ يتلعثم فجأة ولا يعلم ماذا يقول، أو ما يسري أمامه، أرجوكِ يا لين أعطيه فرصة فكري في أنكِ ستكونين معي طيلة حياتك يا لين.
- ديانا أنت تعلمين أن لا شأن لي بأخلاقه ولكن ..
- ماذا يا لين ماذا حبا بالله ؟
ألتزمت الصمت ثم قالت: وصلنا ...

كـان المكـان يعج بـالنـاس، فمن المعروف أن يوم الأحـد يكون ثقيلاً لتـواجـد جـميـع الأطبـاء وغيـرهـا. بقينـا نبحـث عـن الـمخـتبـرات حتى وجدنا مؤيد..

- صباح الخير.
- أهلا مؤيد.
- صباح الخير لين. صباح النور ..

لم تكن لين في حـالـة غضـب فقلـت: لا بـأس، مؤيـد أين المختبر؟

- حسنا أرتديا الصداري وأتبعاني ..

مشـينـا خلفـه حتى وصـلنـا غرفـة كبيرة تحوي الكثير من الأجهزة، والعديد من المختبريين والمرضـى. جلسـنا بعيداً عنهم لنرى ماذا يفعلون، حيث كان اليوم الأول مشـاهدة لكي نتقن العمل، جاء العديد من الطلاب ولم يكن حالهم أحسـن منا. جاء مؤيد ومعه مريض أجلسـه أمامنا، وبدأ يشـرح كيف يمكن أن يتم سـحب الدم منه. بعد يومين من نفس الروتين، والـذي تغير فقط هو تقـارب لين من مؤيـد بشـكـل يجهلانـه كلاهمـا. فـي الـيـوم الـثـالـث كـانـت لـيـن قـد ذهـبـت إلـى أحـد أقـاربـهـا، وذهبت بمفردي للمشـفى، دخلت إلى المختبر جاء مريض فكنت انظر إليهم كيف يقومون بسحب الدم منه، العجيب أنهم لا يبالون ولا يشعرون بضعف المريض، هل يا ترى بسبب تكرر الحالات؟ أم أن قلوبهم ليس بها شيء من الرحمة، لدرجة أن أحدهم أراد أن يخلط دم أحدهم بالآخر فقمت بتنبيهه. أخذ يضحك ويقول: عادي.

فقلت له: وماذا عن المريض الذي سـتعطيه التحليل الخطأ؟ ضـحك مرة أخرى ليقول: وما شأني؟ اشمأزت نفسي منه: هل أنت أحد ملائكة الرحمة حقًا. أخذ ينظر إليّ باسـتغراب. غادرت المكان ورحت أتنقل في أرجاء

المستشفى، سمعت أنين الناس ورأيت دموع رجال ضخمة، وسمعت أحدهم يقول لزوجته في أحد الممرات، أنقذيني لا أستطيع التحمل أكثر. رأيت التي تحمل في بطنها وهي تصرخ يا رب. جلست في إحدى الردهات التي كان الأطفال يلعبون بها، رأيت فتاة صغيرة لا يتجاوز عمرها السادسة، مرحة تقفز تلعب في كل مكان، وكأنها قامت بإعادة ذاكرتي للوراء أربع عشرة عاماً، حيث الطفولة واللعب المفرط، والضحك، تلك الحركات ربما مرة واحدة في الحياة تصادف ذاك الطفل الذي بداخلك، لا أعلم ربما ذكريات الطفولة لا تود مفارقتنا. نفس البشرة نفس الشعر، وحتى تلك التسريحة المسمى (بالستوتات)، كانت تقفز وتلهو وتلعب بشكل دفعني إلى أن أسألها:

- ما أسمكِ يا صغيرة ؟

- ديانا.

كان جوابها كافياً لأن يصدم ذاكرتي ويثير دهشتي، لم أكن أعي ولكن الدنيا صغيرة، صغيرة جداً!

- دكتورة أين الطوارئ ؟

ألتفت وإذا بها امرأة ثلاثينية تبدو في الخمسين من العمر، ترتدي العباءة، تمسك بطفلها في حجرها وطفلتها بيدها، وحقيبة كبيرة في متنها، كانت تمسك دمعتها بنهاية عينيها وكأنها تخجل أن تضعف أمام أبنتها، لا أعلم أين أباهم ولكن كان الطريق للطوارئ بعيداً فلم أستطع أن أكتفي بالشرح لها. أخذت الحقيبة وقلت إلحقي بي، وإذا بها تردد رحم الله والديك. كأن الزمن توقف لثانية عندما قالت هكذا، كأنما شيء أبتسم بداخلي ولكن كبرياء الحزن يقوم بقبر هذه الضحكة. وضعت طفلها على السرير وجاء الأطباء المختصين

ليقولوا يجب نقله لغرفة العمليات، ألتفت لأرى أبنتها ذات الشعر المجعد والوجه الحنطاوي تحدق بي، كانت في عينيها أسئلة، أنا أفضل من يعرف هذه النظرات. أخذتها بعيداً عن الزحام، نزلت لمستوى طولها وطفولتها، مسحت وجهها من الدموع.

- لماذا البكاء يا صغيرة ؟

- هل سيموت أخي ؟

- لا يا حلوتي كيف يترك هذا الجمال ويذهب ؟

- حقاً ؟

- أجل يا حبيبتي.

بعد فترة خرج الطبيب وبشرنا أن الطفل بخير. بقيت الأم تتشكر مني وكأني قد أشفيت جرحاً لها. عندما أردت أن أذهب صاح من خلفي صوت طفولي:

- سأكون مثلكِ عندما أكبر.

تجمدت في مكاني وابتسمت: ستصبحين قوية كدموع أمك. خرجت من المستشفى، ولا زالت أحداث الصدمة اللطيفة في بالي. عندما وصلت إلى المنزل ألقيت بنفسي على السرير، أعيد خطوات اليوم إلى أن غفوت على السرير. بعد أن استيقظت عزمت على زيارة المكتبة، فقد اشتقت إليها وللعم بطرس والعم محسن كثيراً. ذهبت أتمشى في شوارع بغداد وكأني أجوب العالم، بغداد أسم موسيقي يعزف على مسامعي الإرتياح، الأطفال في الشوارع، المحلات القديمة، حتى حرارة الشمس، لا تهم عندي هذه الأشياء.

- أهلا عمي بطرس.
- بنيتي ديانا كيف حالكِ ؟
- بخير وأنت ؟
- اشتقت إليكِ كثيراً، أين أنتِ صغيرتي ؟
- في المشفى أقوم بالتدريب الصيفي.
- وكيف كان العمل ؟
- لا بأس كبداية لفتاة مثلي.
- فعلاً، عنيدة صلبة لا تستقبل الأشياء بسهولة.
- من أنا ؟ ولكن من قال ذلك ؟!
- هل يوجد أب لا يعرف أبنته ؟
- لقد فزت إذاً... كيف هو حال الكتب هذه الأيام ؟
- حسب القراء يا أبنتي.
- أفهم أن هناك كتاباً لي ؟
- فقال: وهو كذلك.

قام عمي بطرس من موضعه، ووضع بيدي كتاباً كان قد خبأه لمجيئي.

- إذاً يا عمي أنا ذاهبة للمنزل و..
- آه محسن ساعتان لجلب الشاي يا رجل ؟!
- ولكن يا بطرس أحمل الشاي بيد، وبالأخرى العود، لست مثلك تحمل الكتاب فقط.

كان أجمل جدالاً أحضره بحياتي.

- عمي محسن كيف الحال ؟
- أبنتي الجميلة، كما هو حال العود !
- أريد أن أراه اشتقت إليه.

- حسناً خذي.
أمسكته بحذر شديد، وأردت أن أعزف ولكن من دون جدوى، أخذ العم محسن يعلّمني حتى برد الشاي، ثم بدأت أمشي عليه رويداً رويداً.
- خذيه ليبيت الليلة معكِ.
- ماذا ؟
- أجل ألا تريدين ؟
- لا لا لا، أريد وبكل إصرار.
أعطاني إياه وقام بتوديعه، كما لو إنه يودع زوجته إلى الأبد.
- ولكن سأعيده غداً يا عم.
- هل تعلمين هذه أول مرة سيكون بعيداً عني ؟!
بعد الوداع الحارق، أخذته وذهبت. في التاسعة مساءً رنّ الهاتف:
- أهلاً لين.
- أهلا عزيزتي.
- كيف كان يومكِ حبيبتي.
- لا شيء، على ما يبدو إني سأؤمن بقدري أخيراً.
- أخبار سارة جداً.
- سيكون لنا يوم طويل نتحدث به غداً.
- حسناً إلى اللقاء.
- إلى اللقاء.
بقيت أنظر على العود، فتحت النافذة كان الهواء جميلاً، ثم فعلت كما يفعل العم محسن وهو يمرر أصابعه عليه، ولكن كأنه يعرف مالكه فلم يستجب لي قط ! وضعته بجانب الأشياء ألتي أحبها، كصورة لين مثلاً، ومكتبتي.

ثم أردت الخلود للنوم، نهضت لأستمع لأغنية "مرينا بيكم حمد"..
ووضعت كوب شاي عراقي ونظرت لصفاء السماء،
ابتسمت وأنا أعيد أحداث ما حصل، لاح بداخلي شيء يريد التغيير فجأة !
أغلقت النافذة وأغلقت مسجلي القديم (هي آلة تشبه الصندوق يوضع
بداخلها شريط أغنية فتتحرك بصوت ذاك الطرب الأصيل ليجوب أرجاء
الغرفة).

في صباح اليوم التالي ارتديت فستاناً بغدادياً جميلاً، ووضعت القليل
من المكياج لوجهي، وضعت الكحل الذي أضاف لعينيّ شيء من البريق،
ثم أخذت حذائي الصيفي، حقيبتي والصدرية، واتجهت لباحة المنزل
لأجد لين جالسة على الأرجوحة.

- حبيبتي منذ متى وأنتِ هنا ؟

- منذ قليل ولكن من أنتِ ؟

- ديانا ؟

- ماهذا يا أبنتي ؟

- ماذا يا لين ؟ أقسم لو حدقتي أكثر فأني سأضع وجهي مكان زرعات أبي
تحت الماء.

- لا لا يا مجنونة، ولكن جميل جداً تبدين كخاتون بغدادية، يا خاتونة
قلبي.

- خاتون ! أسم جميل جداً كإبتسامتي طبعاً.

- ههه هيا يا حلوتي لنذهب.

- ولكن لِمَ أنتِ مستعجلة ؟

- لا لا شيء ..

- حسناً.

بعد وصولنا للمستشفى دخلنا للمختبر، قضينا بعض الوقت ببعض الأعمال ثم جاء مؤيد.

- أمسكا.

- ما هذا ؟

- قطع حلوى.

- ولكن لماذا ؟

نحن ذاهبون لقسم الأطفال، عندما تتعاملان مع طفل مريض أعطوه واحدة تعبيراً عن بداية صداقتكم له، لكي لا يخاف.

- حسناً. وابتسمت لين.

- لماذا تبتسمين ؟

- لا شيء.

- أها لا شيء !!

ذهبنا خلف مؤيد ودخلنا القسم، استقبلت أنا أول طفل ومؤيد ولين طفلاً آخر، تركتهم بمفردهم.

- ما أسم البطل الذي أمامي ؟

- علي.

- أسم جميل، وأنا ديانا.

أبتسم ليمد ذراعه قائلاً إنه لا يخشى شيئاً فهو رجل، قلت:

- وهل تقول إن البنات يخشين.

- أجل أختي الصغيرة تبكي، إذا ما سقطت على الأرض وهي تركض.

نظرت إليه بنظرة خبث ثم قلت: حسناً.

غرزت الحقنة بيده، صرخ ودمعت عيناه، أخذت القليل من دمه ثم سحبتها:

- قبل قليل كنت سبايدرمان، فما بالك أصبحت كأختك ؟!
- ولكنها مؤلمة.
- هل تقبل هذه مني ؟
أخرجت الحلوى وأعطيته إياها، وقلت له: أن أختك لا تقل عنك قوة بل من المحتمل أن تكون أقوى، لا تحكم الدموع على الإنسان وقوته، تكمن القوة في قلب الإنسان وطيبته، حبه للآخرين ومساعدته لهم، هل فهمت يا عزيزي ؟
- كأنتِ حضرة الطبيبة.
- بل كأنت عندما تكبر.
يقول آزاد في هذه الحالة كنت أشاهد من بُعد، وسمعت حديثها. حملت نفسي وذهبت، خرجت من المشفى كله، كنت خائفاً من أن توقع بي كما فعلت أول مرة .. ! هل أضحك على نفسي هي لم تخرج من عقلي ولو لحظة، لكنها تبدو اليوم جميلة ما السر؟ وما شأنك يا آزاد ؟!

بعد مرور عدّة أيام في المشفى:
- مؤيد هل تنظر هنا ؟
كادت عينا لين أن تخرج وتأكل نرمين، نرمين زميلة مؤيد، أنا عن نفسي لا أرتاح لها.
- ما بكِ يا لين ؟
- ما عمل نرمين مع مؤيد ؟
- لا أخفي عليكِ أخي جميل، والنساء يركضن خلفه.

باتت لين تحارب كي تظهر عدم إهتمامها، ولكن من دون جدوى فالحب فاضح. دائماً ما يظهر قلب العاشق بين عينه من دون أن يشعر. ذهبت ووقفت في منتصفهم، وقلت:

- مؤيد، نريدك قليلاً.

- نعم يا ديانا ؟

- أترك نرمين يا مؤيد لا أحبها رجاء.

- ومن غيركِ لا يحبها ؟

- لين.

- ماذا ؟ أقسم أن لا شيء بيني وبينها.

- أنت من عليه تصحيح الموقف يا عزيزي !

- لين هل تحتاجين شيئاً ؟

- لا شكراً، أذهب وأنجز عملك مع نرمين.

- أنتِ عملي يا لين ..!

- ولكن هنا وسط الجميع ألا يكون عيباً..

- ديانا أجلي نصائحكِ.

قالها مؤيد بعد أن أستدار نحوي، كنت أريد أن أوقع بينهم، ثم قلت: حسناً كما تشاءان.

تركتهم وذهبت أفتش عما أشربه في كافتريا المستشفى، عندما عدت وجدت لين ومؤيد في أحسن حال:

- تركتماني في غربة بعد أن أتممتما عملكما معي، أخاصمكما.

أخذا يضحكان وقلبي لضحكاتهما منصت.

- اسمعا أول طفل ديانا ولا أقبل أيّ كلمة.

فلم يترددا بقول بكـل تـأكيـد. جـاء طفـل صــغير مع والـدتـه ووالـده فقلت لمؤيد ولين:

- سأهتم بهم يمكنكم الذهاب.

خرجـا ثم جلســـت ألاعـب الطفـل، ولكن لم يكن بحـالـة جيـدة، فلم يكف عن البكـاء بعد أن أخذت منه الدم، حـاولـت كثيراً إســكاتـه ولكن من غير جدوى.

- يا خالة لِمَ لا تسكتيه ؟

- لا عليك بنيتي (متعود).

- ماذا ؟ ما به يا خالتي ؟

- إنه مريض سرطان ..

كان وقع هذا الجواب على مسامعي كفيل بأن يجعل مني خردة لزمن حقير، أخذت أنظر إليه وأقيس كبر العالم، ضــاق الكون بي فبكيت من غير أن أشـعر. رحت لحديقة المشـفى بكيت حتى أحســست بيد مؤيد وهو يقول:

- ديـانـا هـذه حـال الـدنيـا يـا أختي، لا يملـك الجميع حيـاة هـانئـة. نظرت اليّ لين وقـالـت: ديـانـا ربمـا خبأ الله لـه شــيئاً نجهلـه أنـا وأنـتِ.

- ولكنه طفل !

- لا نعلم مـا قـد كتـب الله لـه، وهو عـادل وعـدالتـه تشــمـل الجميع. عدت للمنزل وأنا أنظر لنفســي في المرآة، كيف أتجرأ على أن أعيش بســلام وهـذا الـطفـل هـكـذا؟ لـمـاذا يـا لـلـه أرجـوك أجـبـنـي؟! لايـزال طـفـلاً كيف ســيتحمل علاج الكيمياوي ؟ كيف يتحمل الألم ؟ كيف لـه أن يقاوم يـا الـلـه ؟ هـل حمـل ذنـب والـديـه أم مـاذا؟ لحظـة واحـدة كفيلـة أن تقلب يومك إلى جحيم، يا الله كم نحن جشـعين نعيش بكامل صحتنا

ولسنا راضين عن هذا، وضعت ما رأيت تحت وسادتي وخلدت للنوم. في اليوم التالي ولقد كانت آخر أيام تواجدنا في المستشفى، جاءت لين ومعها مؤيد لإصطحابي، كان يوماً حافلاً بمساعدة الناس ودعواتهم لنا، هناك لا أحد يعلم ما الذي تعمله أنت، فقط يرون أنك تقدم المساعدة لهم، فقط يحتاجون من يخفف آلامهم ويمسح تلك الدموع، وحدهم من يبكون في تلك الردهات هم من يمتلكون دموعاً صادقة. أدركت من خلاله إن الله يختار للإنسان الأفضل دائماً، وأن الأنسان يمكن له أن يصيغ إنسانيته في أي مجال لا فقط في رأس الطب، كل ما على المرء أن يكون شاكراً للرب الرحيم. ذهبنا نحن الثلاثة للعم بطرس لمكتبته، لنقول له عن السر الصغير، ولأعيد العود الذي كنت قد نسيته للعم محسن، حيث قال إنه لن يسامحني إلا إذا تعلّمت العزف على يديه، وكانت هذه أجمل عقوبة أتلقاها، فمنذ أمد بعيد وأنا أتشوق للعزف على العود.

ثورة 25 أكتوبر

لـم يـكـن الـوضــع فـي الـعـراق عـامـة كـبـاقـي الـدول، فـالطـالـب يتخرج حـاملاً شــهـادة البكلوريوس أو الـمـاجســتير، ولكن نجـده يعمـل على بســطيـة صــغيرة في الشـــوارع العـامـة أو في الأحياء الفقيرة، ولا أبالغ عندما أقول أن بعضـهم كان يبيع الماء فقط ليعين أسـرته. جرائم لا تعد ولا تحصـى يقضـي نصـف حياته دراسـة، ثم يخرج فيرى الصـحراء تحيط به من كل جانب، حتى أنه أصـبح روتيني عندما تقول لأحدهم لماذا تتخلف عن المدرسـة، ببسـاطة يقول وكأنه أختزن هذه الكلمات مما يراه من واقع كسـيف (هو وينه التعيين)! حيث تفشـى الجهل في أرجاء العراق، ولم يسـتطع أحد أن يلومهم، فالكثير من الناس تريد العيش.

اسـتيقظت ذات صـباح، هتافات، أصـوات جمع من الطبقة المثقفة من فتيات وشـبان يجوبون في الشـوارع، ينادون بحقوقهم المشـروعة، ليس بجديد على الشعب العراقي المظاهرات، ولكن من المعروف أنها تعود بالخيبة، فقد أقيمت قبل فترة مظاهرات في البصـرة ولكن كانت النتيجة شـهداء، جرحى، ومحاربة من قبل القوات المعنية، حيث أُعتبر الجميع مخربون وخارقون لسـيادة الدولة. أسـتمر وضـع الطلاب مئة وسـتة أيام، كنت عندما أراهم يعتصـر قلبي ولكن ليس في اليد حيلة. ذات يوم حدث ما حدث حيث قاموا برش الطلاب المتظاهرين بماء حار وتفريقهم بالضرب من قبل قوات الشـغب، وسـقطن عدد من الطالبات وأصـيب البعض من الطلاب، في تلك اللحظة أحسّ الناس بمن فيهم الشـباب والمسـنين والأطفال والنسـاء، أنها إهانة بحق البشـرية واسـتهتار في فسـاد الدولة، وسـرقـة الحقوق، ممـا أدى إلى ثورة الشـعـب بـالكـامـل وهيجـانـه.

خرجت الناس للشوارع تطالب بحقوقها التي كفلها لهم الدستور، والذي كتب للقراءة فقط لا للتطبيق، فهم يطبقون منه ما يماشي أهواءهم. في العاشر من شهر أكتوبر رابط الكثير من الناشطين والشبان في ساحة التحرير، يحملون بأيديهم أعلاماً عراقية بقلوب خافقة وبشجاعة صارمة. تابعتهم عبر الحسابات الإلكترونية كان داخلي يدعو بأن تستجيب الحكومة لمطالبهم، ولكن سرعان ما أقول أنهم سيملون كما فعلوا سابقاً، ولكن بدأ عدد الناس يتزايد وخرج الجميع، لتضم ساحة التحرير الطبيب والمعلم والمهندس والطالب، وحتى ذوي الوعي المحدود، الفقراء والأغنياء ومن كل طوائف العراق المختلفة، ورجال الدين. لم أصدق ما سمعت حتى اتجهت لساحة التحرير أنا ولين وبرفقتنا مؤيد، رأيت ما رأيت من الناس الذين غلب عليهم القهر والتعب. كان هناك من الناشطين من قلبه محترق على وضع العراق، ومن بينهم شخص كنت أتابع ما يكتب وينشر ولكنه ليس كباقي الناشطين بالنسبة لي، رأيته عندما كنت في ساحة التحرير يلبس النظارة الطبية، وتغطي وجهه لحية كثيفة، عيناه بندقيتيا اللون، حاجبيه كثيفين. كلامه شعر، وإذا نظر رسم صورة مؤذية بعينيه الحزينتين، كأنه جسد حب العراق أو كما يقول (أحب بس العراق وثنوة) ثنوة أمه التي ماتت قبل سنتين، كان يحبها لدرجة إنهم سموه أبن ثنوة (صفاء السراي) سمعت إنه من مواليد ١٩٩٣ يعود لعائلة بغدادية سكنت مناطق (جميلة والشعب) تخرج من الجامعة التكنلوجية، توفي والده في وقت مبكر من حياته، وتوفيت والدته عام ٢٠١٧ بعد أصابتها بالسرطان بعدت أجزاء من جسدها، كان شديد الشجاعة تجاوز العديد من المحن وواصل مهامه ونشاطاته

بعد أن تخرج من جامعته من دون رسـوب، عمل في كتابة العرائض (عرضحالجي) أمام إحدى مديريات المرور. كتب الشعر الشعبي والفصيح على نطاق ضيق، وكان رساماً ماهراً وقد رأيت ذلك من خلال لوحاته التي كان يعرضها. سمعت أنه شارك في كثير من الإحتجاجات التي صادفته آنذاك، وتعرّض للضرب على يد قوات الغشب، كما شارك في تظاهرات الحادي والثلاثين من تموز في بغداد، كذلك شارك في تظاهرات أصحاب البسطيات، بعد حملة إزالة نفذتها السلطات. تعرّض للأعتقال خلال تظاهرات عام ٢٠١٣ التي طالبت بتقليص إمتيازات المسؤولين الحكوميين والنواب، ثم أعتقل مرة أخرى في ٢٠١٨ بسبب اشتراكه في تظاهرات المناطق الفقيرة شرق بغداد (المعامل والحسينية وجسر ديالى) تلقى الكثير من التهديدات عن طريق البريد الإلكتروني، في حين أستمر في المشاركة في الإحتجاجات، حيث تلقى من حسابات وهمية تظهر صور أُلتقطت له أثناء تواجده في المعتقل. إنه شاب جريء جداً كان يشتبك مع الإعلاميين والنخب التي يتهمها بالمهادنة، كتب رسالة للحشد الشعبي جاء في بعض من مضمونها (الحكومة وقياداتها تحاول زجكم في مواجهة مع الشعب، نفس الشعب الذي قُتلتم وأُصبتم من أجله، فالشعب باقٍ ويتذكر، والحكومات إلى زوال ..) لم أشأ أن أتكلم معه لدوافع بداخلي. سرعان ما جاء يوم الخامس والعشرين من أكتوبر، وهؤلاء الشباب يقفون بتزايد وعزيمة وإصرار لا مثيل له، ولكن فجأة حدثت الكارثة حيث قامت القوات بتفريق الناس بشتى الوسائل، ومنها الغاز المسيل للدموع، سقط العديد من الجرحى فسارع أبطال من المراكز الصحية بنصب خيم ليقوموا بعمل مفارز طبية.

أشـــتركت مع مؤيد بمفرزتهم وكانـت لين معنا أيضـــاً، لـدي القليـل من المعلومات أخذتها من المشفى بعد التدريب الصيفي، منها تضميد الجروح وغيرها من الإسعافات البسيطة، لم أدرك حجم المصيبة التي وقع بها هذا الشـــعب الحزين، كـان هنـاك العـديـد من الجرحى، ونقـل الكثير إلى المستشفى لإتمام العلاج. الجميع في حالة صدمة كيف يصيب الجندي أبن وطنه؟ منذ متى؟ لقد تعلمنا أن الجنود حماة الوطن، لماذا يحدث هذا يالله ..؟! كان الدم في كل مكان، نحن لم نكن خط الصـــد الأول فهناك مفرزة قبلنا، ولكن الطبيب الذي بداخلها أصـــابته دخانية ونقل على أثرها لـلـمشـــفـى، خـرج مـؤيـد لـمـعـالـجـة الـجـرحـى، ولـيـن مـن خـلـفـه، لحقت بهم بعد أن فرغت من الجروح الخفيفة التي قمت بتضـــميدها ولكن

- أيتها الآنسة لقد وقع بعد تصويبه برصاصة.

دخلت الرصاصة جسد هذا الشاب، ولم يكن هناك الكثير من المسعفين، حيث الجميع مشـغول بالجرحى. وضـعته بين يدي وأخذت اتصـل بمؤيد، ولكن من دون جدوى، نظرت إليـه كان ضـــخماً ذا لحيـة، ثيابـه ممزقـة والـجـروح عـلـى وجـهـه، بـدا لـي وكـأنـي أعـرفـه أو ربـمـا رأيـتـه يـومـاً، ولكن أين هل في طريقي للمكتبة أم أين؟! وضـعت الكثير من القطن على موضع أصابته، واتصلت بالإسعاف ولكن لم تكن سيارات الإسعاف تكفي، يا للمصـيبة صـرخت أقول فلينقذنا أحد، هذا الشـاب يجب نقله للمشـفى. فصرخ أحدهم قائلاً:

- استعدي أيتها الطبيبة.

وقام بحمله ليضعه في عربة صغيرة يسمونها باللهجة العراقية تكتك وضعه في المـقـعـد الخلفي وجلســـت معـه أتوســـل إليـه بـأن يفتح عينيـه ولا يغيب عن الوعي، عندما فتح عينيه.

- يا ألله أنها نفس العينين ما هذا ..!!
- ديانا ماذا تفعلين هنا ؟
- آزاد ما الذي جاء بك إلى هنا ؟
- عجباً كم أن الدنيا صغيرة، أنقذكِ فتردين لي المعروف.
- كفى يا آزاد توقف عن الحديث، إياك أن تتعب نفسك ولكن حاول أن تبقى مستيقظاً.
كان يمسك بيدي وكأنه طفل صغير، يحاول أن لا يضيع أمه بين الزحام. وصلنا للمستشفى واستقبلنا العديد من الممرضين، أخذوه مني ليجروا له العملية، بعدها اتصلت بلين لأطمئن عليها، فقالت أنهم بخير ومؤيد معها أيضاً وإن الجيش أوقف أطلاق الدخانيات. وقع العديد من الجرحى والقتلى الذين كانوا يريدون وطناً فقط، هل هذا عدل أين ستفرون من ربكم ..!؟
المشكلة أنهم لا يقتلون الشعب فقط، بل يُميتون الفكرة بداخلهم أيضاً. بقيت واقفة في باب صالة العمليات مع العديد من الناس، أدعو لآزاد وكأنه من بقية أهلي!
- من مع المريض آزاد ؟
خرج الطبيب متعبًا منهك القوى، وهو ينطق الحروف واحدة تلو الأخرى.
- أنا يا حضرة الطبيب.
- استخرجنا الرصاصة وهو بحالة جيدة، نرجو له الشفاء العاجل..
- شكراً يا حضرة الطبيب.
فرحت كثيراً، وسرعان ما أخرجوه للغرفة الخاصة بجوار العديد من المصابين. كنت جالسة عند رأسه منتظرة أن يستفيق، جاءت الممرضة وأعطتني ساعة وقلادة عبارة عن سلسلة فقط. قالت:
- هذه أغراضه رأينها عندما كنا نجري العملية، وهذه محفظته.

لم أشـــأ أن أفتحهـا فليس من طبعي أن أتـدخـل في شـــؤون أحـد، ولكن فضــول دفعني لفتحها فلم أجد بها ســوى مبلغ صــغير جداً وصــورة لإمرأة كبيرة، من الواضح إنها أمه ورأيت عنوانه.

بعد نصف ساعة..

- هل أنا في الجنة؟

كان ينظر للسقف وبالكاد يحرك شفتيه من فعل المخدر.

- لا بل في العراق.

- هذا جيد فلا شيء أجمل منه.

كان يتكلم وهو يقوم، فدفعته على السرير.

- إلى أين تريد؟

نظر في عينيّ مطولاً، ثم قال:

- أعود إلى حيث أنتمي.

- حسنًا، ليشفى جرحك أولاً.

- لماذا وهل تطيب الجروح؟

كان سؤاله مبهماً، يحوي الكثير من الأسئلة.

- إذا قدر الله لها أن تطيب فسوف تطيب؟

- الله وأين هو؟

- أنك لازلت تحت تأثير المخدر، أخلد للنوم هيا.

أتصل أبي فتركت آزاد يعود براحة لوضعه ثم أجبته.

- أبنتي أين أنتِ؟

- أنا في المستشفى يا أبي أحدهم أصيب وأتيت به إلى هنا.

- يا أبنتي الوضع خطر، عليكِ العودة.

- حسناً يا أبتي حالما أطمئن على حالة هذا المصاب.

أغلق أبي وعرفته من صوته أن قلبه في حنجرته. جاء مؤيد ولين عرفته عليهما، فحيا مؤيد بتثاقل وهزّ برأسه للين. جاء مدير المشفى ليقول:
- نرجو ممن خرجوا من العملية ويشعر أنه في صحة جيدة التوجه لمنزله، لأننا لا نملك أسرة كافية، وهناك العديد من الجرحى.
قام آزاد مصرّاً على العودة لبيته.
- ولكن أنت..
- ديانا ألم تسمعي يجب أن نفسح المجال لغيرنا، ثم أني لا أحب جو المستشفيات أبداً إنها تسبب لي الغثيان.
- إذاً سوف أوصلكم.
نظر لمؤيد ليقول: شكراً لا أريد أن أتعبك.
- لا يا روحي هذا واجبي.
قمنا بإيصال آزاد إلى فرعهم، فلم يشأ أن نوصله إلى عتبة الباب، ثم نزل يتمشى وذهبنا نحن. عندما وصلت إلى البيت كانت أمي تبكي وهي تقول:
- لماذا يا أبنتي ستقتليني حتماً من خوفي، أبنتي أرجوكِ لا تذهبي بعد الآن.
- أمي هل تعلمين إني قمت اليوم بالإحساس لإنتمائي لهذا البلد، لقد أحسست بالعيش، كيف تطلبين مني أن أموت؟ لا يا عزيزتي صدقيني لن يحدث لي شيء، لأن الله معنا. بقيت أمي تتوسل بعد ذهابي، ولكن توسلت أكثر وكان أبي ينظر لي بكل خوف وفخر، ليقول بعد انقطاع أنفاس أمي:
- كيف هو حال هذا الشاب؟
- بخير يا أبتي، شكراً على اهتمامك.
- هيا اصعدي لغرفتكِ وارتاحي.

ذهبت إلى غرفتي وكانت هناك فرحة بداخلي، ولكنها مخيمة بالحزن على القتلى الذين وقعوا هناك، كيف ستنام اليوم الأمهات؟ ما الذي سيوقف نحيب قلوبهن الدامية؟ كيف سيتحملن أن ينام أولادهن بحضن التراب بدلاً من أحضانهن. أردت أن أنظر لصفحة ذاك الناشط وأرى ماذا كتب اليوم، وما موقفه من كل ما جرى، ولكني كنت متعبة جداً لدرجة إني غفوت بملابسي من غير أن أشعر.

لم أكن أعلم

استيقظت في التاسعة صباحًا، كان التعب قد أكل أطرافي ليصل إليّ بشكل خفي. كيف أصبح آزاد الآن يا ترى؟ ولكن لِمَ لَم أرَ ذاك الشاب في الأمس ليس من المعقول إنه غادر التحرير! رحت أكلم نفسي وأنا أرتدي ملابسي لأتجه لساحة التحرير وللمفرزة، كان العام الدراسي الجديد على وشك أن يبدأ، ولم أكن أتخيل ما سيحل بالثورة حينها. عندما استلمنا النتائج أنا ولين قبل شهرين كنا نخطط ماذا سوف نشتري من ملابس، ولكن الآن كل همي هو الثورة، لا أريد التفكير بشيء.
طرق خفيف على الباب.

- من؟
- أنا هل أنتِ مستيقظة؟
- تفضلي أمي .. صباح الخ...!!
- ماذا؟ إلى أين يا ديانا؟
- إلى الساحة.
- ولكن ..
- أمي أرجوكِ لقد تأخرت يجب أن أذهب، أعدكِ إنه لن يصبني مكروه.
- حسناً.

ودعت أمي ورحت مهرولة، فوجدت أبي جالساً في الحديقة.

- صباح الخير أبي.
- أهلاً حبيبتي هل لي أن أكلمكِ قليلاً؟
- تفضل يا أبتي ..

- ديانا لســـت واثقاً من هذا الصـــباح، أكان ســـيمضـــي على خير أم لا، ولكني واثق من جميع قراراتكِ فلا تخيبيها بإصـــابتكِ بمكروه يا أبنتي، ليس لـدى الإنســـان أعز من عـائلتـه فلا تـؤذيـني بـكِ يـا ديـانـا.

نـظـرت لـعـيـنـيـه الـلـتـيـن مـلأهـمـا الـدمـع والـكـبـريـاء، أحسست أنه يريد أن يخبأني بين جفنيه.

- أبتي أنت كل يوم تحارب لأجلي، فأنت تحبني وأنا سأحارب لأجل وطني، فـلـيس هـنـاك مـن يـعـلـم شـــدة حـبي لـه كـمـا تـعـلـم أنـت ذلـك.

- لم أمنعكِ عمن تحبين فلا تمنعيني عمن أحب.

نظرت إليـه بقوة لأُوصـــل إليـه ذاك الأحســـاس، وأمســـكـت بيـديـه.

- هذا وعد يا أبتي.

أخـذت الـمـفـتـاح مـنـه وذهـبـت لـلســـيـارة، اتصـــلـت بـلـيـن فقـالـت أن عملاً طـارئـاً قد ظهر لها. فقلـت حســـنـاً، وكـان مؤيـد في عملـه في المشفى، وعدني أنه سيأتي بعد الظهر. دعست على بنزين السيارة وكأني أضـــغـط على مكـابح روحي، لقـد تعلّقـت بـالســـاحـة لـدرجـة كبيرة والأكثر هو لرؤيـة ذاك النـاشـــط. عنـدمـا وصـــلـت رأيـت شـــيئـاً عجيبـاً لـم يـكـن بـالـحســـبـان، رأيـت تـزايـداً مـلـحـوظـاً مـن قـبـل الأهـالي، وكان الجميع متكاتف يداً بيد و..

- هل جئتِ اليوم أيضاً؟

- آزاد !! ماذا تفعل هنا هل أنت مجنون؟

- فقال بحب هذا البلد نعم.

أخذت أنبهه ولكن الكلام معه هواء في شبك. عندما اشتدت حرارة الشمس كان واقفاً أمامي، وفجأة أصـــبح وجهه شـــاحباً وبدا وكأنه ليس بوعيه، ثـم ســـقـط مـغـشـــيـاً عـلـيـه. أســـرع إلـيّ بـعـض الـشـــبـاب لـحـمـلـه،

كان من بينهم طبيب شـــرحت له حالته، فقال أنه يجب أن يعود لمنزله، فقد حدثت له مضـــاعفات وهذا شـــيء طبيعي لجرحه الذي لم يشـــفَ بعد. وضـــعته في الســـيارة لأخذه إلى بيتـه، طول الطريق هو فـاقد للوعي، لم يكن ينتبه حتى لتنبيهات الســـيارات التي كان الناس يزمرون لي بها، لأني لم أكن بوعي أيضاً! عندما وصلت للشارع الذي وضعناه عنده بالأمس توقفـت أبحـث عن أحـدهم ليـدلّني على بيتـه، فوجـدت امرأة مســـنـة قـالـت إنـه هـنـاك عـلـى جـهـة الـيســـار مـن "الـدربـونـة" الـتـالـيـة، وأكملـت بصـــوتها الهزيـل (ثـالـث بـاب). عنـدمـا وصـــلـت إلى بيتـه لم أكن قـادرة على حملـه فـاســـتدعيت أحد الجيران لحمله، حيث قال:

- آه كم نصحته ولكن دون فائدة.

على ما يبدو إنه يعلم بإصـــابته، وقد حاول جاهداً منعه ولكنه عنيد! أوحى الباب أن البيت قديم، وضـــعت في بالي الكلمات التي ســـأقولها لوالدته، ولكن عندما وضـعناه على الأريكة في الإسـتقبال الصـغير المطل على الباب مباشرة، وذهب هذا الشاب لعمله، بقيت وحدي مع آزاد أنتظر أمه التي قلت في نفســـي أنها قد ذهبت للتســـوق. كان آزاد يغط في نومه خاصـــة بعد الحقنة التي أعطاه إياه الطبيب. رحت أتفتل في أرجاء المنزل بعيني فقط، فوجدته منزلاً رثّاً يكاد أن يقع، وبيوت العنكبوت تحيطه من كل جانب، ناهيك عن الرائحة القادمة من المطبخ، وصـــورة معلّقة على جدار المنزل لإمرأة كبيرة، وغرفة لا أعلم ما بداخلها. قمت لأرى فوجدت المطبخ وكـأنـه قـد مرّ عليـه قرن دون تنظيف. أخـذت أغســـــل الاواني وأرتب بعض الأشياء ثم قمت بكنسه ومسحه.

- ماذا تفعلين ؟

- هل صحوت ؟ تعال تعال وأرجع إلى مكانك.

نظرت وإذا بدمه ظاهر من فوق القميص، أجلسته على الأريكة وقمت بخلع قميصه لأضمد له جرحه. بقيّ ساكناً ولم يتحرك قط إلى أن انتهيت من تضميده، ثم قلت له:

- سأجلب لك قميصاً، أين ملابسك ؟

أشار للغرفة المقابلة، فتحت الغرفة فوجدت إن حالها لم يكن أسوء من المطبخ، رحت أفكر أين أمه عن فوضته هذه ؟! ياله من فوضوي! أخذت قميصاً وعدت إليه، ثم طلبت منه أن يرتديه فأرتداه بسرعة، وكأنه قد خجل مني، ثم قلت له بعد أن جلست أمامه.

- أين والدتك ؟ لقد انتظرتها طويلاً أريد أن أوصيها على العنيد، ثم أعود من حيث أتيت، بالتأكيد أن مؤيد قد وصل ولم يجدني.

- أمي ميتة...

ساد الصمت لثوانٍ ربط خلالها فمي، ولم تخرج سوى: آسفة.

- فقال: لا، لا شأن لكِ. الرب هو من أخذها مني، وأماتني في هذه الحياة، هو من جعلني أعاني كل يوم، وأكلم فقدها في الليل آلاف المرات، لأول مرة في حياتي أناديها ولا تجيب، هو المسؤول عن كل ما حدث وسيحدث.

لم يكن في حالة تسمح لي أن أنهيه عما يقوله، ولكن قلت له ما قال أبي أن الله يختار كل زهرة جميلة ليضعها في حديقته.

- ولكن ماذا عن حديقتي ؟ كيف سأداوي هجرها ؟ كيف لي أن أرممها ؟ كيف لي أن أخوض معركة الحياة من غيرها ؟

- آزاد إن الله يختار أقوى جنوده لأصعب معاركه.

نظر إليّ نظرات حيرة ولكنه أراد أخفاء ذلك، ففعل بإبتسامة ساخرة ثم أدار وجهه ناحية الصورة.

- حسناً سأعد لك طعاماً بسيطاً ثم أذهب من حيث أتيت، ولكن أنظر كتبت لك رقمي أن احتجت لشيء فأتصل بي.
قمت للمطبخ وطلبت منه أن يبقى في غرفته ففعل من دون تردد.
(لم تكن ديانا فتاة عادية، نظراتها عندما كانت تلف جرحي، عيناها البنيتان، شفتاها الصغيرتان، يداها الناعمة، شعرها الأسود يبدو كحزني، ويعلو كل هذا قلبها. رغم قصرها مقارنة بي إلا أنها تبدو أقوى وأصلب وأرق فتاة عرفتها، صحيح إني لم أكن أحدث الفتيات ولا أحب ذلك، ولكن وضعتني موضع الطفل المطيع بين يديها. ثم كيف لها أن تؤمن على نفسها في بيت شاب أعزب ؟!)
قمت بفتح الثلاجة فلم أجد فيها سوى الباذنجان، وقليل من الخضروات والخيار، رحت أقلي له ما وجدت ليسد بها جوعه، ورتبت له الصالة ثم ألتفت فرأيته خلفي.
- هل ينزعج أذا علم أنكِ هنا ؟
- من تقصد ؟
- حبيبك.
- من ؟ حبيبي ؟ من أين أتيت بهذا ؟
- ألم يكن سنان حبيبك ؟
- ولكن ماذا تقول ؟ من أخبرك بهذه التفاهات ؟!
- عندما كنا في البصرة أخبرني هو ذلك، بعد أن هددني بعدم إقترابي منكِ، وزعم أنكما كنتما متخاصمين لأمر ما..
- ولكن! إنه مجنون كان يجب عليّ تأديبه منذ البداية. ولكن.. أنت كيف تسألني سؤالاً كهذا؟ ليس لك الحق أيضاً إياك أن تظن أني كأيّ فتاة و ...

أخذت حقيبتي ثم اتجهت بسـرعة للسـيارة، كان آزاد يصـرخ من خلفي، ولكن الغضـب قد سـيطر عليّ حينها ولم أسـتطع أن أتمالك نفسـي، أدرت السيارة مسرعة إلى المنزل.

يالك من غبي يا آزاد كيف تقول لها كلاماً بهذه الطريقة؟ هل هذا رد المعروف أم أنك تعودت على جرح كل من حولك؟ تباً لك تباً.

صـعدت لغرفتي من غير أن أرى أمي وأبي، رحت أذهب وأجيء في الغرفة بغضـب، ماذا ظن نفسـه لكي يحاسـبني هكذا؟ كيف له الحق؟ وذاك الآخر المجنون سـنان، يا الله ماذا زرعت برأسـه كيف يفعل هذا كيف؟!

إنها الرابعة عصراً، قمت مسرعة للذهاب لشن هجوم عليه، وأقسمت على تأديبه، عندما وصلت إلى هناك كان مشتولاً كعادته، لم ألقي السلام على العم بطرس أو العم محسن واتجهت إليه بصفعة تلقاها وكأنه يُضرب لأول مرة بحياته.

- الويل لك أن كررت فعلتك الخسـيسـة يا سـنان، من أنت لكي تنسبني كإحدى حبيباتك؟ أو كأنك اشتريتني من سوق النخاسين؟

أمسـك بي العم بطرس يحاول تهدئتي، وراح العم محسـن يبعده عن ناظري، ثم أعطاني عمي بطرس كوب ماء بارد، وكان العم محسـن بجانبي أيضـاً، ثم قال:

- ماذا هناك يا أبنتي؟

فرويت له كل ما حدث منذ إصـابته بالإنفجار مروراً في البصـرة وآزاد. قام العم محسـن بتأنيبه إلى أن غادر المكان. أخذ العم بطرس يقنعني بأنه لا يعود لمضـايقتي ثانية، والعم محسـن مؤيد لما يقول. اعتذرت منهم على

اندفاعي ولكن لم يكن الأمر بيدي، فقال العم بطرس:
- لا عليكِ يا أبنتي.
ثم طلبت منهما أن يبقى الموضوع بيني وبينهما دون علم أبي بشيء، وإلا سيرتكب به جريمة.
عدت للمنزل ورحت أرتمي في أحضان غرفتي، وصوت لين وأنا أحكي لها عما حدث، أخذت تُلقي باللوم عليّ قائلة:
- كيف تذهبين لمنزل شاب لا تعرفينه ؟
رحت أبرر عن نفسي: لين لقد أُغميّ عليه، ولم أدرك ماذا سأفعل، ثم ظننت أن والدته موجودة ولا أخفي عليكِ أني أمنت له، ربما تضاريس روحه انعكست على ملامحه، لا أعلم.
- ديانا إياكِ أن تفعلي شيئاً كهذا ثانية، نحن في مجتمع شرقي، أرجوكِ يا ديانا لا أتحمل أن يتكلم أحدهم عنكِ أو يؤذيكِ، وأنا أعلم جيداً باطنكِ النظيف في قعرهم المتسخ، ثم ذاك سنان يجب على أحدهم أن يوقفه عند حده، أذهبي للنوم أنت الآن.
- حسناً.
بعد أن أنهيت حديثي مع لين رحت أجوب في أرجاء المنزل، أتفكر لماذا كانت طريقة كلامه هكذا ؟ ماذا كان يحسبني ؟ وبماذا فكر ؟! ثم أنا كيف تصرفت وكأني أعرفه منذ سنين ؟ لماذا لم أعامله كما عاملت سنان. وما هذا أنها محفظته، الساعة والسلسلة!! كيف نسيت أن أعيدها له ! قطع كل هذا إتصال هاتفي.
- نعم.
- ديانا أنقذيني.
- من ؟ آزاد ماذا بك ماذا هناك يا آزاد ؟

ولكن أنقطع خط الهاتف، أسرعت لأخذ سيارة أبي.
- إلى أين يا أبنتي ؟
- إلى لين وسأعود من فوري.
ركبت السيارة ثم اتصلت بلين، وقلت لها أن تأتي معي.
- ديانا هل جننتِ ؟
- أرجوكِ لين أرجوكِ.
- حسناً في انتظاركِ.
وصلت للين وأخذتها معي، وعند وصولي لشارع قريب على حيهم رأيته واقفاً! نزلت مسرعة.
- ماذا هناك يا آزاد ؟
فقال بخجل: ليس هناك شيء، فقط أردت أن أعتذر عما قلته صدقيني لم أكن أقصد.
- آزاد حباً بالله هل هناك مزاح في هذا ؟
- أعتذر يا ديانا، ولكني أعلم بأني لو قلت أريد التحدث في هذا، فلن تسمحي لي، بل حتى إنك تقفلين الخط في وجهي، حقاً أعتذر يا ديانا أنا لم أتحدث بعمق هكذا مع فتاة قط، لطالما كنت انطوائياً منعزلاً لا يُطاق، لا أعلم كيف تحملتني أمي خمس وعشرون عامًا ..
لم أكن أتحدث إليه بل تركت الكلام له وحسب، أحسست أنه أغلق الدنيا وهو يتكلم معي، كان شارد النظر ولكن كله معي يتحدث عن ألم ووحدة شديدة ويأس من هذا الكون، قائلاً أن الله يكرهه.

- ديانا أين كان الرب حين دعوته هل كان نائمًا؟!
في طريقك له لم تكمل مسيرتك، عندما دعاك اهريمان[1] أسرعت لبابه مستجيباً للغواية، وعذراً فليس من صفات الإله أن يجبر شخصاً على شيء، ولن يجبرك الله على الوصول لبابه...
قطعت حيرته الفاضحة بإعطائه محفظته، الساعة، والسلسلة، ثم عدت أدراجي، صاح من خلفي:
هل سامحتني؟
وضعت يدي على باب السيارة وقلت: ربما هذه المرة!
عدنا للمنزل لفت انتباه لين أنه لم يُرِد أن يسبب لي الإحراج حيث خرج للشارع ولم يجعلني أدخل لمنزله في الليل.
- ألم أقل لكِ يا لين أن بهِ شيئاً مختلفاً.
- ديانا مابالك مع هذا الشاب؟
- لا يا لين فقط من باب الإنسانية لا أكثر.
- سنرى يا ديانا.
أوصلت لين للمنزل، وعدت لمنزلي كان أبي ينتظرني.
- هل حدث شيء يا أبنتي؟
- لا يا أبي عمل طارئ وقد أنجزته، ليلة سعيدة.
- ليلة سعيدة.
بعد أن ذهب أبي للنوم خرجت للحديقة، جلست على الأرجوحة، كان صوت صريرها قد أزداد وكأنها في شيخوختها، أسندت ظهري للخلف ورفعت رأسي للسماء أنظر إلى النجوم. كيف لكِ أن تضيءِ وسط هذه العتمة ألا تتعبين؟

١- أهريمان: هو أسم من اسماء إبليس.

على الرغم أن الجميع سـينسـاكِ عند أول طلوع للنهار. لاحت صـورة آزاد أمامي وهو يقول، أنـا أعتـذر. لا أعلم سـبـب تلاطفي معـه وتسـامحي، هل أشفقت عليه لأجل ما قاله أم ماذا ؟

- آزاد

كيف لها أن تسـيطر عليّ هكذا ؟ لماذا أبدو كطفل في نهاية العشـرين ؟! لـماذا أريـد أخـبـارهـا الـمـزيـد عـنـي ؟ بـل لا أريـدهـا أن تـبـتـعـد، صورتها لا تفارق ذاكرتي التي لطالما لم تنشغل بشيء سوى الظلام القاتم، ثم كيف يمكن لها أن تجعلني أدور في دائرة الحيرة في كل مرة كيف ؟ أشعر بالعطش الشديد علَّ الماء يروي فؤادي. عندما كنت واقفاً على عتبة المطبخ أخذت أتذكر كيف فرحت عندما نكرت علاقتها بسـنان و.. ما هذا ؟! إنه الطعام الذي أعدته !! يا لي من أحمق كبير وساذج، كيف لم أشكرها على ما فعلت من أجلي، ومن أجل منزلي ؟ كيف أضـافت له هذه اللمسـات الهادئة التي فقدتها من قبل أربع سـنوات بعد رحيل أمي ؟! سـأتصـل بها لأشـكرها على كل شـيء، أخذت الهاتف ومن دون أن أفكر اتصـلت بها.

ديانا _ الحادية عشر ليلاً

رنّ الهاتف لينشـر أسـئلتي في مهب الرياح، اسـتيقظت من يقظتي.

- نعم من معي ؟

عمَّ الصمت: يا لكم من شلة فارغة انقرضوا كفاكم انتشاراً.

- هل أنتِ عصبية دوماً ؟

- فقلت: من آزاد ؟

- ومن تتوقعين ؟

- لا أتوقع أحد.

- أردت شـكرك على مسـاعدتكِ لي، وعلى الطعام، شـكراً يا ديانا إنه دين لن أنساه.
- لا، نحن نتصافى، أنقذتِني مرّتين، من الغرق ومن غباء سنان.
- هل لي أن أسألكِ سؤالاً؟
- تفضل!
- لا، لا شـــيء فـقـط أريـد أن تـكـونـي حـذرة عـلـى نـفـســكِ، ولا تذهبي لساحة التظاهرات وحدك.
- غـالبـاً مـا أذهـب مع أبن عمتي مؤيـد، سـبق وأن عرفتكم على بعض في المشفى، إذا كنت تذكر.
- أجل اتذكره.
- أنـت من يجـب عليـه أن يجلس قليلاً في البيـت ريثمـا تشـفى.
- أنا لا أستطيع، يجب أن ألتحق بالمفرزة الطبية.
- وهل سيأتي مؤيد معكِ؟
لم أتوقع منه هذا السؤال: لا لديه عمل.
- حسناً إذاً لا أدعكِ وحدكِ سأذهب معك.
- ولكن ..
- ماذا هل أسبب لكِ الضيق؟
قلت بنبرة خفيفة: لا، سأمر لأخذك في التاسعة
- أنتظرك.
- إلى اللقاء
- إلى اللقاء.
قلبي يا فاضحي هل لك أن تهدأ، ما هذه الفرحة؟!

- ديانا.

كيف نسـيت، لم أتصـفح اليوم ما كتبه صـفاء! دخلت صـفحته لأرى صوره التي كنت أغوص في تضاريسـها، وهو يكتب ما يكتب تحتها، خلدت للنوم في غرفتي وكان داخلي هادئ جداً.

في صـباح اليوم التالي أخذت عدتي وارتديت قميصـاً فوق الركبة، وبنطالاً، كما ارتديت حذائي الرياضي الأبيض، وأسرعت لأجد سيارة أبي عند الباب أخذتها وذهبت بها.

- آزاد.

اليوم لم يكن كباقي صـباحاتي، أنا من أيقظت المنبه هذا الصـباح! ارتديت أجمل ثيابي ولم تكن سـوى قميصـي وبنطالي القديمين، نفذت قنينة العطر ولكنها أسـعفتني، مشـطت شـعري، يا ترى هل تحب الرجل الملتحي أم لا؟! لا يهم سـأعرف مع الوقت. خرجت للشـارع انتظرتها أن تأتي، شـتمت شـرطي المرور الذي يكون قد عطلها، نظرت للسـاعة وإذا بها الثامنة والنص! يا ويلي بقيت نصف ساعة أيضـاً!!

- ديانا

عندما وصـلت إليه وجدته يحدق بسـاعة يده، زمرت له فجاء.

- صباح الخير.

- صباح النور، أركب.

بعد أن مشينا مسافة رنّ هاتفي.

- أهلاً عمي بطرس.

- أبنتي هل يمكن أن تأتي للمكتبة.

- حسناً يا عم.

- سأعرفك على أجمل رجل عرفته بعد أبي.

- أتشوق لهذا.
عندما وصــلت إلى هناك كان العم محســن والعم بطرس في انتظاري، عرّفتهم على آزاد.
- لقد تعرّفت إليه في البصرة إنه صديق حسام يا عمي.
- آه حسام كم إنه ولد لطيف.
- أجل يا عم لقد درست جامعتي هناك وهو صديقي جداً.
تحدثا معاً قليلاً، ثم سألت:
- عمي بطرس ماذا هناك ؟ لماذا دعوتني هل هناك شيء يا عمي محسن ؟
نظر أحدهما للآخر، ثم قالا لي أن ســنان طلب أن يتقدم لخطبتك.
لقد كان وقوع الخبر كحجر في مياهي الراكدة أخذ نفســي يتصــاعد وكأن قلبي يضرب نفسه في أرجاء صدري.
- هههه، ماذا تقول يا عمي أنا وســنان ؟! مزحة جميلة، يجب أن نذهب الآن يا عمي، هيا يا آزاد.
- ولماذا مزحة ؟
كان سنان يقف خلفي مباشرة.
- ألم أقل أني لا أريد رؤيتك من جديد ؟!
وفجأة دخل مؤيد ليبرحه ضربًا.
- كيف تتجرأ على التقرب من ديانا أيها الحقير ؟
بالكاد فصــلت مؤيد عنه، أخرج ســنان ســلاحاً من جعبته، وحاول ضرب مؤيد فوقفت أمامه.
- إياك يا سنان إياك.
قام آزاد بمغافلته وضربه من الخلف، وسحب سلاحه ليضربه مرة أخرى، قام العم محسن بحل النزاع فأبعد سنان عن الوسط.

- مؤيد هل أنت بخير ؟
- ديانا كيف يمكنكِ أن لاتخبريني شـــيئاً كهذا ؟ لماذا يا ديانا لولا لين لما علمت هذا.
- آه لين لقد قلت لها أن لا تخبرك.
- وقعت في شِباك الكلام عندما كانت حزينة عليكِ.
- حسناً لا شيء أنت اهدأ.
ثم ذهبت لآزاد الذي كان يقف بعيداً عنا.
- هل حدث شيء لك يا آزاد، دعني أرى جرحك.
أبتعد عني خطوة ثم قال: ليس بي شيء.
لم أفهم سبب هذه الحركة! بعد نصف ساعة قال آزاد:
- لقد تشـــرفت بمعرفتك أيها العم بطرس، يجب أن أذهب للســـاحة.
- حمـاك اللـه يـا بني وأرجو أن تعود لزيـارتي حتى أتعرّف عليـك أكثر.
- حسناً يا عم.
- أنا أيضاً سأذهب، لنذهب معاً يا مؤيد.
- سأعود للمشفى ومن ثم الحق بكِ.
- حسناً.
- هيا يا آزاد أركب.
- لا سأذهب وحدي.
- لا تقل هذا، وهيا من دون عناد.
ركبنا ولم ينطق آزاد طول الطريق بحرف واحد، حتى إني لم أعلم ســـبب صـــمته، ولكني لم أزعجه. عندما وصـــلنا كالعادة رأينا الجموع الغفيرة موجودة وأجواء الوطن الهتافية والروحية، صـــلاة كبار الســـن لحفظنا، وصـــفـاء ذاك الـنـاشـــط، هـي أجـمـل شـــيء أراه فـي الـتـحـريـر.

كـان الجيش متســـامحـاً مع المتظـاهرين، بـل ويبـدو خـائفـاً عليهم، فلم يكن بيدهم حيلة هم يطيعون الأوامر فحســـب، دموعهم تعتذر عن موقفهم مع أبناء الشعب.

- آزاد..

لماذا وضعت نفسها كحائط صد له؟ وهو كيف أندفع يريد قتل ذاك القذر؟ هل أن بينهم علاقة أو ما شابه؟

- أنا سأعود للمنزل أشعر بالتعب.

- حسناً وأنا أيضاً.

عندما عدت للبيت كنت أنظر لنفسـي في مرآتي المكسـورة، ولماذا لا تحبه فهو من نفس مســتواها وأبن عمها، ويبدو أنه يحبها، لديه وظيفة وســيارة ويملك بيتاً أيضـاً، بحق الجحيم ماذا تملك يا آزاد ســوى خرابتك ودمار السـنين؟ كيف سـمحت لنفسـي بالتفكير حتى!؟ خلعت قميصـي الذي كاد يخنقني ووضـعت نفســي على السـرير المتهاوي في وسـط حزني وخيبتي، وتسـللت لصـورة أمي، ها قد استسـلمت يا أمي وسـمحت لنفسي أن تتكوم كمتشـــرد فوق خرابة الأيام، وأومأت برأســـي متقبلاً ذاك الثقل الذي كان فوقي، فلم أعد أميز من يحمـل الآخر، أنـا أم الشـــارِع الـذي تركتني بـه؟! أدركت حينها أن كل ما عَليّ قد على عليّ.

- ديانا

لم أعلم سـبب انقلاب آزاد هكذا، وما شـأني؟ ولكن هل سـبب له سـنان الإزعاج أم أن جرحه يؤلمه؟! أخذت الهاتف لأتصل به.

- كيف حالك؟

- بخير وأنتِ؟

- قلقت عليك، هل حدث لك شــيء؟ لماذا لم تكن أنت منذ قليل؟
- فقط جرحي كان يؤلمني؟
- سأتصل بمؤيد ونأتي على الفور.
- لا، لا أريد أن أتعبه.
- تتعب من؟ مؤيد أخي أعلمه كما أعلم نفســي، أنه لا ينزعج من مســاعدة أحد ولو في الثالثة فجراً.
- ماذا قلتي؟
- أقول إنه لا ينزعج.
- لالا بل قبلها، ماذا؟ هل قلتِ أخاكِ؟!
- أجل أنا ومؤيد أكثر من أخوة، هو الآن غاضــب مني ولكن لا عليك، يأتي لو طلبت منه ذلك.
قال ضاحكاً: لا أشكركِ لقد أصبحت بحالٍ أفضل.
- هل أنت متأكد؟
- أجل.
- حسنًا أخلد للنوم إذاً.
- سأخلد للنوم، شكراً على سؤالك.
- عمت مساءً.
- ليلة سعيدة.
تقول أخاها !! يالِفرحتي، ولكن لا تتفاءل عد وأنظر لنفســك يا آزاد، كيف ســتنظر إليك فتاة كديانا؟! عدت إلى ســريري تمددت فوقه، نظرت للســقف البالي، أنت كروحي لا أحد يعلم بك من الخارِج، عشت وستموت معي وحيداً يا صديقي!

- ديانا

لماذا بدا صوته وكأنه فرح عندما قلت أخي، أو لأنه استغرب عن طيب علاقتي به، حيث الأخ في هذا الزمان صعب إيجاده عندما يكون من غير أمك وأبيك.

(لين سأخلد للنوم) بعثت الرسالة فأجابت مسرعة.

- ديانا أعتذر ولكن قد أخبرت مؤيد من قهري وحرقة داخلي.

- لا عليكِ أريد أن أنام.

فقالت مترجية: ديانا أرجوكِ.

- لين كيف تقومين بأخبار مؤيد؟ ماذا لو أرتكب جريمة مع ذاك الحقير؟

- ديانا كان يجب أن يربيه أحد لكي لا يتمادى بحقكِ.

ثم قلت لها بنية إحراجها: ثم أين وجدكِ ليخبركِ ؟

- ها، لقد أتصل بي ليلة أمس، وأخبرته عما حدث لأنه رآكِ ليلة أمس تدخلين المنزل ولم تجيبيه عندما ناداكِ.

- ماذا ؟

- أجل أتصل بي وحلّفني بكِ لكي أقول، وأنا صراحة لم أتردد.

- حسناً يا لين غداً سأتكلم معه، فهو خاصمني على الأغلب.

- تصبحين على خير يا حبيبتي، أحبكِ.

- أنا أيضاً أحبكِ، وأنتِ من أهلي.

الميت الحي

كنت لا أزال متعبة ولكن هناك شعور يقودني إلى ساحة التحرير، لا أعلم لماذا يعصر قلبي هذا الصباح ؟ أختنق رغم إنهم يقولون أن هواء الفجر يكون أجمل هواء، لأن البشر لا يزالون في نوم عميق، أو لا يوجد هناك من يتنفس سوى الأزهار والطيور.

في الخامسة فجراً وأثناء جلوسي في الحديقة على أرجوحتي التي صرت أتعب من صريرها، أتفكر في خلق الله، وكيف من خلق هذا الجمال أستطاع أن يخلق بشراً كالذين قتلوا المتظاهرين الأبرياء. مظفر عبد المجيد يقول من ركّب أقنعة للناس؟ آه ابن ثنوة كيف لك أن تجعلني مولعة بمظفر لهذه الدرجة! فتحت متصفحه الشخصي ورحت اقرأ قصيدة له تقول:

كمر آخر ليلة بالبصرة الحزينة
مرني آخر طيف بعيون المدينة
داسن أجدامي الدرب
وصعد بيهن خدر وسكن كلبي
بقت عيني توزع شوك
وضواها وكل شيء حاير

إنها ليست مجرد قصيدة، عندما أقرؤها أشعر أنه يأخذني، يدخل أعماق روحي ويتجول.

خذني .. خذني إلى حيث العدم
حيث آثار الزمن ومقهى تلك الذكريات
والصور المبعثرة على أرصفة القِدم

حيث الهدوء المفتعل
من الضجيج إلى النغم
واتركني متى شئت ولو في المنتقم
أمهلني لأحزمني كأمتعتي القديمة الهاوية ولا تكفي الحزم
وأشق طريقي الى قصر الهموم مبعثراً
أقيم وحدي والنائحات خدم.
- ديانا ..أبنتي ؟ صباح الخير يا حبيبتي ماذا تفعلين هنا ؟
- صباح الخير أبتي، لا أعلم يبدو إني غفوت هنا قليلاً.
- هيا تعالي نفطر معاً.
- قادمة.
بعد أن انتهيت توجهت للساحة، كنت ذاهبة للمفرزة. دخلت الساحة وكالعادة عيناي تبحث عن أبن ثنوة صفاء ..! كنت مع مجموعة موسيقيين والصدفة الجميلة عمي محسن كان في وسطهم، وبجانبه العم بطرس. وقفت أسترق النظر إليهم وبالأخص لعود العم محسن، أشعر أنه يحرك النفس للتحرير فيأخذ بغداد لصباها والشباب، من خلال حركات أصابعه حيث كان يلحن (صغيرة جنت وأنت صغيرون) كان الجميع مندمجاً معه، حتى قال أحدهم في أذني:
- كيف الحال ؟
استدرت لتقع عينيّ بعين آزاد، نظرت إليه وكنت أتأمل نظراته الدافئة، لحيته الكثيفة، شفتاه الناعمتان، وجهه البريء، وكأنه نديم في السنة الأولى من عمره.
- أهلاً آزاد، بخير وأنت ؟
- أحسن بكثير، شكراً لكِ على كل شيء.

- يعود الفضل لله، لم أفعل شيئاً سوى واجبي!
- كنتِ مندمجة كثيراً مع العم محســن، حتى إني كدت لا أُوقظك من تلك الإبـتســامـة الـتـي كـانـت مـرســومـة عـلـى تضــاريـس وجـهـك.
- أجـل العم محســن يـأخـذني إلى عـالم غريـب لا أســتطيع وصــفـه، حتى إني أحبه كثيراً و..
- ديانا ؟
- عمي بطرس كيف حالك ؟
- أهلاً أبنتي بأحســن حال. كيف هي جميلة وخاتون بغداد الصــغيرة ؟
- والله أن كان أفنديتها بخير فهي بخير.
- ديانا ؟
- لين مؤيد أهلاً وسهلاً.
- كيف حالك آزاد ؟
- بخير...الحمد لله.
رأيت الجميع والكل في صــحة جيدة، ولكن لماذا داخلي غير مطمئن، لماذا أشعر أن شيئاً سيحدث!
- ما بكِ ديانا بِمَ شردتي ؟
- لا يا عزيزتي لين لا شيء.
عندما عدنا أدراجنا بقي آزاد هناك، وصــلـت إلى البيت وأكملت غدائي، جلست خلف مكتبي وكالعادة كانت المنشورات ثورية ولكن تم النشر قبل دقائق ... هجوم مســلّح على ســاحة التحرير قبل قليل، وقناني مســيلة للدموع تتســبـب بقتل العديد من الشــبـاب، قناصــين مجهولين !! بدأت أتصــفح من غير وعي و ..صــفـاء!! لا ليس هو إنه يشــبهه أكيد !! صفاء كيف، لا يعقل،

حيث أوضح الفيديو تجمهر الناس حوله وحمله بعد أصابته. كيف يموت الفن؟ أنى لكم هذا؟ هل يندثر الشعر أم !!! رحت أصرخ في أرجاء روحي، خدعة، خدعة، أنها خدعة لا يمكن أن يموت وميتة بشعة، كيف يموت العشق كيف؟ وبعد أن صار الخبر أكيداً لم أتمالك نفسي، وانهمرت دموعي فوق صحراء روحي. لماذا يالله؟ لم يكن يريد الكثير، كان يريد وطناً أيها الرب أرجوك لماذا؟ رحت أقلّبني ذهاباً وإياباً، توسطت الغرفة جثوت على قدمي، أمسكت رأسي بكلتا يديّ، لا يمكن هذا مستحيل! دخلت لصفحته الشخصية ولم أجد له سوى الذي رأيته في الصباح، أجل قتلوه قتلوا ركن الثورة، لم أستطع التحمل وهممت أريد الذهاب للساحة، ولكن منعني أبي قائلاً:

- إنهم لايزالون قائمين على فعلتهم، ولا أسمح لكِ يا ديانا.

رحت أتصل بمؤيد فقال إنه كان نائماً. إتصلت بآزاد وسألته بصوت مرتجف:

- هل، هل صحيح إنهم قتلوا الناشط صفاء؟

- أجل يا ديانا أنا أعتذر.

أغلقت الهاتف وعدت لغرفتي، هل من المعقول أن يموت صفاء كله؟ دفعة واحدة! لم أتمالك نفسي وصرت أبكي على فقده. أحدهم بعث اليّ بفيديو كان تصويراً لحمله من الأرض بعد أن إجتاحت تلك القنينة رأسه، وكأنها لم تقاوم رائحته الجميلة فقررت أن تحتضنه ! دائماً ما يموت الجيدون وها هو صفاء ذاهب بعد أن خلّفنا ورائه، مع آثاره التي تركها كنور في عتمتنا. أخذت ورقة وقلماً لأكتب له رسالة، فنثرت بعض من حروفي على ورقة الحزن، لأقول له:

(لعشيق العراق، عليك مني السلام) .

أما بعد..

أود تقديم خالص الشكر(شكراً كلش حيل) مرتان: أما الأولى على حبك للعراق، وأما الثانية على شغفي للتفتيش بين أشيائك، وإذ بي أجدك متيم بمظفر النواب، لا أعلم لكن شعور قادني بلا وعي للعبث بما كتبت، لأرى سبب هذا الحب الذي ولد من رحم المعاناة. جُلّ الذي أعلمه يا عزيزي إن الحب الذي يولد في الظلام عقيم، إلا حبك ومظفر! كأنه البدر في غسق الدجى، أول ما نظرت إليه بعين قلبي من كلمات النوابي هي(مرينه بيكم حمد) لا شك عندي أنه مرّ بك ليأخذك من مُر الحياة، فمَر حباً. وأما عنك صعدت ذاك القطار الذي كانت تذكرته (حِن وآنه أحِن) كأن الشهادة هي من تختار من يليق بها. فعلاً وأنتم أهلٌ لها، كأن العراق يريد أن يتزين بك، وأما نحن، نحن العدم من بعدك!

الخلود لك ولحبيبيك (أبو النهرين ومظفر)

والسلام على أم العراق ثنوة، لكِ كل الحب سيدة الجمال.

على قيد الوطن _صفاء السراي.

وضعت الورقة جانباً ورحت أخذ اتنفس، ولكني أشم رائحة الدماء من كل جانب. لا لا ليس للدم رائحة طيبة، بل هو عطر كافوري.

الهاتف.

- كيف حالكِ الآن يا ديانا ؟

- لستُ بخير.

- ديانا صفاء نال ما لم ننله نحن، هو تخلّص من قذارة ما نعيش!

نطقها آزاد بخوف عليّ.

-هل يمكنك أن تتركني الآن من فضلك، أريد أن أختلي بنفسي.
- فقال: طبيعي لك الحق.
- آزاد.
لم أكن أفهم حزن ديانا على صفاء، كنت أحسبها تحب النظر لقصائده كأيّ شاعر أو ناشط، لم يسبق لي أن أسمع لها صوت بهذا الحزن! ماذا أفعل الآن أنا لا أعرف أين تسكن حتى ؟! نظرت إلى جوف الليل، أتسأل كيف مات هذا الكم الهائل من الشباب ؟ كيف تبدو التحرير اليوم من غير صفاء ؟ كيف يعود لها صفاؤها بعد الآن ؟ لم أشأ أن أتصفح شيئاً، كنت أغرق في دائرة الحقيقة المرة، وأنا أود تقبّل أنه من الشهداء وهو الآن عند ثنوة ..

جبل أحد الثوري

كنت قد عزمت على الإلتحاق بســاحة التحرير على الرغم من رفض أبي القاطع، لم أشــأ أن أترك ذكر صــفاء. اتجهت للســاحة فوجدت الدموع الممتزجة بالدماء، رأيت عويل الرجال، صــراخ الصــمت، لم أعد أتمالك نفســي جثيت ورحت أبكي الوطن فوق أرضــه.

- ديانا هل أنتِ بخير ؟

- كيف حالك يا آزاد ؟

- برؤيتك هكذا لست بخير.

سألته بهمس: ماذا حدث بالأمس ؟

أخذ آزاد يروي لي ما حدث، والدموع ترسم الموقف فوق وجنتيه التعبتين. شــعرت أنه يتكلم حول فلم هوليوود أو ما شــابه، لم أكن أصدق ما اسمع، كيف يقتل الإنسان إنسانًا فقط لأنه يحمل علماً، لم يكن يحمل أكثر من هذا، آه نســيت علم وأحلام مؤجلة. لم تكن بغداد كعادتها هذا الصباح، الشمس خافتة وصوت صفاء ساكن، لم تكن قصــائده موجودة في الوســط، ولكن ما هذا هناك، تجمعات!

- ماذا يحدث يا آزاد ؟

- ديانا يجب أن تعودي إلى المنزل حالاً.

- ولكن ماذا يجري ؟

- فقال: الثوار يريدون السيطرة على (المطعم التركي).

- ماذا ؟! ولكن حياتهم سوف تتعرض للخطر.

- أجابني وهو ينظر لكلتا عيني: لا عليكِ ديانا يجب أن تعودي.

- لا، لا لســت مســتعدة لترك الســاحة، لن أعود ســأدخل للمفرزة بإنتظار مؤيد ولين.

- حسناً، عديني أنكِ لن تتقدمي للصفوف الأمامية.
- أعدك إنتبه لنفسك.
ذهب آزاد وبعد قليل سمعنا أصوات لرصاص حي، وكان الثوار لا يملكون أي أسلحة، فعلمنا حينها أن هناك هجوماً مسلّحاً عليهم، وسرعان ما جاء الرد من المحافظات القريبة،
حيث إلتحق الثوار من باقي المحافظات بساحة التحرير. كانت الرصاصات أكبر عمراً من ضحكات الشباب، حيث وقع الكثير ضحية هذا الهجوم. ولكن استطاع الأبطال الوصول (للمطعم التركي) وهذا المطعم متمركز وسط العاصمة، وهو بناء قديم مهجور لعدّة أسباب.
بعد أن جاء مؤيد ولين كان عدد الجرحى والقتلى الذين وقعوا يدمي القلوب، صار جميع من في المفارز الطبية يحاولون الوصول للجرحى، ولكن من غير فائدة. فلم تكفِ سيارات الأسعاف. سارع الأبطال ممن يملكون التكتك بنقل الشباب، كنت أرى الأعداد الهائلة من غير تصديق، فهم تركوا ما يمكن أن يكسبوه ليكملوا باقي يومهم، وصاروا يمكثون بين يدي الثوار، كانت الغيرة تتصبب عرقًا منهم. التحقت مع أحدهم ليأخذني لموقع الإصابات، وكانت الصدمة هناك عندما رأيت الجيش قد تسبب في هذا؟!! لم أكن حتى أتخيل كيف يمكن لمن دافع عنا أن يقتلنا.
- كيف ولماذا؟
- سنان؟!
- ديانا؟!
- هل كنت معهم ضد الثوار يا سنان؟
- عملي يا ديانا.

قالها بتكبر وغرور وكأنه أتقن عمل لوحة فنية، أو كأنه تسـبب بإنجاز.
- العـار لـك يـا سـنـان. أنتم عبـدة المـال، لسـتم من حمـاة الوطن بل أنتم مليشـيات قذرة، الويل لك من الله ومن بكاء الأمهات الثكلى، الأرامـل، واليتـامى ألا لعنـة اللـه عليكم بئسًـا لـك ولأمثـالـك.
- ديانا ماذا تفعلين هنا ؟
- آزاد.
ركضت نحو آزاد: هل أنت بخير ؟
وضعني آزاد خلفه.
- ماذا تفعل مع ديانا أيها القذر ؟ أقسـم أني سـأقتلك ولا أهتم حتى لرائحة جثتك النتنة.
- توقف يا آزاد، أتركه وشأنه سيلقى عقابه.
- وما شأنك أنت بها ؟ وكيف تدخل بيني وبين ديانا ؟
- سأريك ما شأني.
لم أسـتطع مسـك آزاد، ولكنـه راح يضـربـه، فـأخـذ جرح آزاد ينزف. صرخت بأعلى صوتي فتركه آزاد وجاء اليّ راكضاً.
- آسف اعتذر يا ديانا.
- آزاد جرحك يا آزاد.
- حسناً نضمده معاً، هيا.
أخـذت آزاد بعيـداً عن نظرات الحقـد التي كـانـت بـداخـل عيون سـنـان، بل حتى صـرت اخشـى عليه منه. أجلسـته في زاوية قريبة، وكان الناس من حولنا كلاً منشـغل بما لديه، أخذت أعقم جرحه وأعيد تضـميده.

- حمداً لله لم يفتح جرحك، هل أنت مجنون، كيف تدخل معه في شجار وأنت هكذا؟

(أدخل جهنم لو أرادت هذه العينين).

- بِمَ أنت شارد؟ أسألك ولا تجيب؟

- أنا متأكد أن له يد بما حدث في الأمس، واليوم أيضاً. مثله يجب تأديبهم يا ديانا..

بعد قليل تعالت أصوات مكبرات تقول، المطعم التركي صار حلالاً علينا، وها قد أتخذ منه الثوار مسكناً كجبل أحد، كانت فرحتهم وهم يصرخون (محد يحب العراق بكدنا) لا توصف! ولكن هذه كلمة صفاء!! أجل الثوار هناك يصرخون بأسمه مستغيثين بإمه كما يستغيث المسيحي بمريم العذراء. سقطت على الأرض ووضعت رأسي بين ركبتي.

- ديانا أرجوكِ كفى..

- أبكي صفاء الذي لم يرَ هذه اللحظة، الذي كان في كل تظاهرة يتمنى أن يكون معه أحد، والآن الثوار ينادون بعباراته!

- ديانا سأقول لك شيئاً.

نظر إلي بكل حزن ثم قال:

- لقد رقد السراي في مستشفى الجملة العصبية مأثراً بأصابته، وقد أجرى له الأطباء عملية أزالوا فيها شظية القنبلة الغازية من رأسه، وأوقفوا النزيف، ولكن حالته بقيت حرجة، فتوفي عند منتصف الليل. وصل جثمانه الى التحرير بعد آذان الفجر رغم سريان حظر التجوال، وطاف به أصدقائه تحت نصب الحرية، ثم حملت جثمانه سيارة نقل جماعي، وتقدمت التشيع عجلات (التك تك) فأخذ المشيعون يهتفون

" رافع راسه يا ثنوة أبنج" لقد ذهب مرفوع الرأس يا ديانا، هل يمكنكِ أن ترفعي رأسكِ أيضاً؟
مسحت دموعي وأنا أعلم أن صفاء لم ولن يموت، صفاء أكثر من فكرة والفكرة لا تموت، سيدخل هذا الشاب التأريخ من أوسع قلبه.
- شكراً لك يا آزاد.
بعد أن ضمدنا الجرح جاء مؤيد ولين.
- ديانا لماذا تقدمتِ للأمام يا حبيبتي؟
أخذت تحتضنني بكل قوة.
- لا شيء، كان هنا العديد من الجرحى، وعندما أتيت ألتقيت بسنان.
- ماذا؟ سنان؟ ماذا يفعل هنا؟
- أليس هو ضابط في الجيش! لن أتحدث أكثر عنه ولكن أعتقد أن له يد بما حدث، فهو يتلقى الأوامر مطيعاً من غير أن يرف له جفن.
- هيا يا مؤيد خذ ديانا ولين وعودوا إلى المنزل، لقد تعبتم بما فيه الكفاية.
تركت لين واتجهت له: هل تمزح أنت؟
- لا يا ديانا أخشى أن يتأزم الوضع أكثر، أو أن يحدث هجوم مفاجئ وأنا لا أريد أن يحدث لكِ شيء.
- وأنا اريد البقاء هنا لكي أؤدي ما عليّ.
- ديانا ؟!
- آزاد هذا يكفي.
توجهنا لمعالجة الجرحى والمصابين، ثم تم حمل الجثث الطاهرة التي احتضنتها الأرض ليلتحقوا بصفاء. راح مؤيد ولين كلاً مع مريض، وجاءني أحدهم على أكتاف أصدقائه يلتقط أنفاسه الاخيرة !!
- دكتورة أرجوكِ ساعدينا، أرجوكِ.

أخذت أنظر لوجهه المغطى بدماء الثورة، أمسك بقميص صديقه، وقال له:

- قل لحبيبتي أني أحبها، وإياك أن تترك الثورة.

ثم راح يغمض عينيه بكل راحة، وكأنه بين يدي والدته، صرخ صديقه بكل ما أوتي من قوة وأخذ يقول:

- تصرفي يا حضرة الطبيبة، أرجوكِ تصرفي.

أجريت له الإنعاش القلبي ولكن من دون فائدة، فارق من يحبهم وكان آخر ما نطقه الحبيبين، وآخر ما رأه هو وجه صديقه. لم أكن في موقف أحسد عليه أبداً، وكأن الدم تجمد في عروقي وتصاعد على وجنتي، ابتعدتُ عنهم لم أكن أعلم ماذا أفعل، لقد مات أمام ناظري وكنت مكتوفة اليدين، لم أنفع بشيء! لم أستطع انقاذه، لقد مات!

- ديانا هل أنتِ بخير؟

- لقد مات يا آزاد بين يدي، مات يا آزاد لن يعود غداً، لا لحبيبته ولا للتحرير!

ضمّني آزاد بقوة إليه، وكأنه يحاول أن يحتويني.

- كفى يا ديانا، كفى ليس باليد حيلة، أرجوكِ كفى.

تعبت كثيراً وكانت الشمس حارقة، سقطت من فوري متخذة من جدار كتفه الهش مسنداً لي، ورحت بنوم خفيف أسمع أقدام المارة، وذاك الهمس أيضاً ودقات قلبه المتسارعة و...

- ديانا، استيقظي يا ديانا استيقظي.

- آزاد

لم أعرف مـاذا افعـل وخفـت لـدرجـة إني حملتهـا، ولم أكن انظر أمـامي كنت أنظر لوجهها الملائكي فقط.

- أرجوكِ يا ديانا استيقظي، لا أتحمل أن يحصل لكِ شيء، أرجوكِ تحملي.

- آزاد ما بها ديانا ؟!

- لا أعلم يا لين أرجوكِ ساعديها.

- ديانا، لين، آزاد ماذا حصل لها ؟

- لقد مـات أحـد الجرحى بين يـديهـا، وبعـدهـا دخلـت بحـالـة هســتيريـة، ثم أغميّ عليها...

الخمر الحلال

أرجوك أيها الرب الذي تحبه ديانا لا تأخذها مني، أرجوك لا طاقة لي بفقدان من أحب، أرجوك لا تفعل كما تقول ديانا وتمتحن صبري بها، أموت يا الله أموت. قالت لي ذات مرة أنك تسمع وترى وتستجيب ولو بعد حين، وقالت أيضاً إنه يأخذ أجمل الزهور لحديقته، إذا كنت ترى فحديقتي خالية مهجورة وهي الزهرة المتفتحة الوحيدة في خريف أيامي، أرجوك .. كان الليل ثقيلاً والدموع الممزوجة بآهاتي أثقل، صوتي يدل على أني رضيع يريد أمه أن تشبعه، كلي يريد الخروج مني والمكوث في جسد ديانا، إشتقت إليها بكل ما يحمل الشوق من معاني، وأنا أتصوره كقلب خارج جسدي، كأضحوكة على وجه الحزن، ربما كأثاث قديم تكسوه الذكريات، أو أوزان تلاعب بها الشعراء، وها هي أم كلثوم على مسرح قلبي، آه كيف يتصور الشوق نفسه! ثم أين أنا ؟! وإذا بي أقف عند شباك غرفتها، كما كنت أفعل قبل خمس ليالٍ علّها تستيقظ !

- ديانا

رفعت نفسي بتثاقل حاد، وكأني أرفع كل الأفكار في رأسي لتصلي في حضرة الأوهام التي طالما خلدتها كحقيقة.

- ديانا حبيبتي لقد استيقظتِ، لك الحمد يا الله.

لم تكن لين بحالة جيدة، إنهالت عليّ وكأنها تراني بعد انقطاع أو كأني عدت من الحرب تواً.

- لين ما بكِ لماذا تبكين ؟ ولماذا أنا في هذه الحال ؟ أشعر أن رأسي يدور ما الذي يجري ؟!

- ارتاحي يا صــغيرتي ومقلة عيني ونفســي، لقد تعرضــتِ لحرارة عالية وقد خشينا فقدانكِ، ولكن الله أرحم من كل شيء.
- ماذا جرى يا لين ؟
- أبنتي ..ديانا ..
دخـل عليّ أبي وأمي، مؤيـد وعـمتي العـم بطرس والخـالـة مريـم، ولم تكن حالتهم تختلف عن لين !
- هل لكم أن تخبروني ماذا يجري هنا ؟
- ديانا لقد ســقطتِ مغشــياً عليكِ في ســاحة التظاهرات في ذلك اليوم، وكـانـت حرارتـك مرتفعـة وأغمي عليـكِ، الليلـة هي خـامس ليلـة لـكِ هنـا.
أخذت لين تشرح لي كيف كان آزاد يحملني بعد أن أستشـهد ذاك الشـاب أمام ناظري. نظر العم بطرس إليّ:
- هل كنتِ تنوين تركي وخالتك مريم ؟
ارتســم الحزن على وجهـه وهو يعـاتبني، بـل اتخـذت تجـاعيـد وجهـه طريقاً لقلبي، أمسكت يده وأمسكت بالخالة مريم:
- لا أترككم أبداً صدقوني.
نظرت إلى أمي وأبي: هل تودان قول شيء ؟
راحت أمي تبكي وهي تشيح بناظريها عني، ثم صارت تحتضنني، وأما أبي يكاد لو يقيم جنازة !
- مؤيد عمتي لماذا أنتما بعيدين عني ؟!
- لا أسمح لكِ بتركنا يا ديانا...
- حسناً يا أخي.
- حمداً لله على سلامتك يا حبيبة عمتك.

- والآن يجب أن تستريحي يا ديانا، أنا سأعود غداً لكِ، هل تم يا وردتي؟
طبعت على جبيني قبلتها الناعمة.
- حسنًا يا لين.
غادر الجميع من الغرفة، تراجع العم بطرس ليخبرني بشيء همساً وضحكة ذات مكر:
- هل تعلمين من كان عندي طيلة هذه الأيام؟
- من؟
- رفع حاجبه ثم قال: آزاد.
- ماذا؟
أكمل قائلاً: أجل كان يأتي ويجلس بجانبي نتحدث، وآخر مرة تركته يبكي! هل هناك شيء لا أعلمه؟!
-لا، لا يوجد شيء يا عمي بطرس.
خجلت جداً وأدرت وجهي، فلم أكن أسيطر على ضحكة قلبي، خرج وهو يقول:
- عمكِ محسن أبلغني أن أوصل سلامه إليكِ.
بعد أن غادر الجميع، ولم تبقَ معي سوى قبلة لين وكلمات العم بطرس عن آزاد، أخذت أفكر مابه هذا الشاب؟ لماذا هو مهتم لهذه الدرجة؟ ولماذا أنا فرحت لهذه الدرجة؟! هل من المعقول إني ..؟ لالا. أردت تبديل ملابسي فأرتديت ثوب نوم بسيط، قمت لأتمشى قليلاً في الغرفة، أردت أستنشاق الهواء ففتحت النافذة أنظر للسماء. أخذت نفساً عميقاً أنزلت رأسي للأسفل ورأيت أحدهم يجلس أمام النافذة مباشرة، حاولت التركيز به وإذا هو يقترب من النافذة لتبدو لي ملامحه واضحة تحت ضوء القمر!!

ماذا يفعل هذا المجنون هنا؟ أبتسم لي وكأنه أراد أن يتحدث معي، نظر إليّ بتمعن وبقيّ واقفًا مع ابتسامته اللاهثة. نظرت إليه ثم ابتعدت عن النافذة، نزلت للأسفل بعد أن وضعت وشاحاً خفيفاً يعلو متني، مشيت نحو الباب بخفة، فتحت الباب ورأيته لازال مزروعًا هناك، رآني عندما فتحت الباب فجاء نحوي، أخذت دموعه تلمع، وكأنه يريد البكاء، فقال:

- كيف حالكِ؟
- بخير ماذا تفعل هنا؟!
- أردت أن أطمئن عليكِ.
- أنا بخير وأنت؟
- لآن صرت بخير.

وقفنا قليلا من دون أي كلمة، كان الصمت كفيلاً بكل شيء، والقمر قد أضاء عتمتينا.

- هيا يجب أن أعود لفراشي.
- أذهبي.
- وأنت؟
- نلت مرادي، الآن اذهب لبيتي.
- كن حذراً.

عدت للداخل واتجهت نحو غرفتي، ولا أعلم سبب فرحتي. نظرت من النافذة وإذا به كان يودعني، لوّحت له ثم أغلقت النافذة وعدت لسريري.

- آزاد

كنت فرحًا لدرجة إني أكاد لا أشعر بنفسي، مضى زمن على قلبي لم يضحك به، وكانت ابتسامتي أوهن من خيط العنكبوت. هناك من يثمل من نظرة كأنه أرتشف كأس حياة، كأنه فاز بالأبدية، وهي الوحيدة من أنواع ذلك الذي تصفه أمي بالسم محللة.

عندما وصلت إلى البيت لم أكن بوعي، وكأني أعود من أحدى الحانات. وضعت رأسي على وسادتي، تخيلتها بذاك الثوب البسيط وشالها الذي يغطي نصف صدرها، ابتسمت، شكراً أيها الرب الطيب. ثم نمت على تلك الحالة ..

- ديانا

استيقظت في صباح اليوم التالي، كانت الساعة الحادية عشر.

- صباح الخير أمي

- فقالت فرحة: أهلاً قرة عيني.

- أين أبي ؟

- لقد ذهب للعمل كان قد أخذ أجازة لأجلكِ، ولكن أتصل به الضابط اليوم وقال له يجب أن يلتحق بهم ..

أخذت من الزيتون الذي كان بيدها ورحت أسأل: لماذا ؟

- بعد الذي حدث أخذ رجال الشرطة يذهبون لحماية المتظاهرين، وأباك هناك أيضاً.

كنت فرحة لهذا الخبر، بل كدت أطير من فرحتي، دوماً ما يجعلني أبي فخورة به. بعد ساعة دخل أبي ورحت أرتمي بحضنه.

- بنيتي الجميلة كيف حالك اليوم ؟

- جيدة، لدرجة الذهاب لمكتبة العم بطرس.

- هل أنت متأكدة ؟
- أجل سأذهب عند العصر.
- كما تشائين.
خرجنا للحديقة، أخذ أبي يدور حول نفسه وهناك تساؤل في فمه.
- ماذا هناك يا أبي ؟
- فقال بتثاقل: ديانا لا أخفي عليكِ هناك شيء في رأسي.
- وما هو ؟
أخذ ينظر للورد الجوري الفواح: من آزاد ؟
- لماذا تسأل ؟
رفع رأسه ثم قال: فقط رأيت أهتمامه بكِ لم يكن طبيعياً!
شرحت لأبي عن آزاد ولكن لم أقل الكثير، كنت أخجل أن ينظر لي أبي نظرة العاشقة، وليس أوانه، فلست متأكدة من مشاعره تجاهي، ولم أكن أنا أيضاً مستعدة لأسلّم قلبي ونفسي لرجل.
- حسناً يا أبنتي لقد فهمت.
لم يسأل أبي الكثير، وكان هذا دلالة لكي لا يحرجني.
- جاءت لين صباحاً ووجدتك نائمة.
- حقاً يا أمي ؟
- وهل قالت أنها ستعود ؟
- أجل قالت أنها ستأتي عصراً.
بعد أن أنهينا طعامنا وشربت الشاي مع أبي، عاد أبي لعمله وعدت أنا لغرفتي. أتصل مؤيد ليخبرني أنه ذاهب مع والدته لبابل لابن عمه حيث سيقام عرسه. أخبرت لين أيضاً أعتنوا ببعضكم ريثما أعود.
- أن شاء الله أوصل سلامي لعمتي.

- إلى اللقاء.
- في أمان الله.
رحت أتصــفح المدونة الشــخصــية لصــفاء كما كنت أفعل، رأيت الكثير من الفعاليات التي كانت لا تصدق، و... أتصل آزاد.
- أهلا كيف أصبحت اليوم؟
- بخير وأنت؟
- بخير..
- سأذهب بعد قليل لمكتبة العم بطرس، أين أنت؟
- أنا في الساحة، ولكن كيف تذهبين لازلتِ متعبة.
- ليس بي أيّ شيء.
- عنيدة.
- فقلت له: أنظر من يتحدث!
- أعتني بنفسكِ.
- وأنت أيضاً.
- تفضل الباب مفتوح.
- كيف هي صغيرتي اليوم؟
- لين بخير، تعالي هنا أخبريني بما جرى خلال هذه الأيام.
جلسـت لين على حافة المكتب، وهي تنظر لي بشـيء من الغرابة المزيفة.
- لا أخفي عليكِ يا ديانا، لم يكن آزاد طبيعياً، هو خاف عليكِ لدرجة فاضحة، ولكن ليس أكثر مني طبعاً.
- لين أرجوكِ أكملي.
- حســنًا... لقد كان يقف عند النافذة كل مســاء، وكان يذهب في النهار للعم بطرس.

- وأبي كيف لاحظ أمره ؟
- في المستشفى.
- آها.
- ديانا هل هناك شيء لا أعلمه ؟
- حركت كتفي: لا يا صغيرتي.
- جيد، أتيت إليكِ ولكن يجب أن أعود والدتي بإنتظاري سنذهب لجدتي.
- كما تشائين.
- لا تتعبي نفسكِ هل هذا مفهوم ؟
- حسناً آنستي.
- إلى اللقاء ..
- إلى اللقاء حبيبتي.

ارتديت فستاني الصيفي القصير، وحذائي الرياضي، وضعت القليل من الزينة لأخفى ملامح المرض وشحوب وجهي، أخذت حقيبتي واتجهت للمكتبة. كان العم بطرس يقوم بترتيب بعض الكتب، فقلت له بلطف:

- ماذا يفعل أمير المكتبة ؟
- ههههه أمير في الستين من عمره ؟!
- أجل وأمير جميل.
- كيف تشعرين ؟
- بعد أن رأيت الكتب بخير جداً.
- ديانا أين أنت مني، ومن وعودي يا فتاة ؟!
- عمي محسن تكلمنا قليلاً عما يحدث في البلاد، ثم...
- السلام عليكم.
- وعليكم السلام.. آزاد ! ألم تكن في الساحة ؟

نظر بداخل عيني وهو يحمل كاسات الشاي ثم قال: أحدهم يحب الشاي، فقمت بتوصيله أليس كذلك يا عمي بطرس ؟

- أجل يا بني.

جلس آزاد بجانبي وكانت رائحة الشاي والكتب القديمة، وعزف العم محسن تطغى على كل شيء من حولي.

- آزاد

كنت أسترق النظر إليها كطفلة لطيفة، تحاول الوصول لعقد ذهبي، ككلمة حب هربت من فم أخرس. عندما كانت ترتشف الشاي كنت أغار من فم القدح وأحسده.

- الآن حان دوري.

أخذت العود وبدأت بالعزف، كان عزفها متقطعاً ولكنه مقطوعة متكاملة داخل قلبي، الذي يرتجف لمجرد رؤيتها.

بعد نصف ساعة.

- لقد تحسنت مهارتك ديانا، عن قريب سوف أسلّم هذا العود وانحني أجلالاً لكِ.

- ليس بهذا الشكل يا معلمي حضرة الأفندي.

ضحك الجميع فلم يكن غريباً كل موضع تطأه قدمها تنبته فرحًا!

نهضت أسلّم العود لصاحبه، ثم قلت:

- يجب أن أذهب الآن.

- فقال آزاد: سوف أوصلكِ هيا بنا.

ذهبنا معا وكنت أود أن يطول الطريق او نتمشى حول العراق بأكمله. أحدهم يعشق لدرجة أن يوقف بطاريات الساعة عند النظر للمعشوق، ظناً منه أنه أوقف الزمن، غبي فالتك تاك عبارة عن هروب الميل منا،

والبعض يركضون خلفه. لم أشأ أن أبين له أني قد وقعت فريسة لإهتماماته الزائدة وخوفه عليّ، فقلت له:

- أشكرك يا آزاد على ما فعلت من أجلي.

- ليس هناك داعٍ لشكري فعلت واجبي. وأنا أرد إليكِ ديونكِ و ..

- وماذا ؟

توقفنا نظر للزاوية ثم قال: لا أود خسارتكِ.

وضعت نفسي موضع الغبية التي لا تفهم، وأسترسلت في المشي: أكرر شكري لقد وصلت للمنزل.

- هيا إلى اللقاء، أراك في التحرير.

- ماذا ؟! لا، يجب عليك البقاء في المنزل.

- بل عليّ أن أعود إلى حيث ينتمي صفاء.

- عمت مساءً.

لم ينطق بحرف واحد ولم ألتفت خلفي.

(لماذا هي متعلّقة بصفاء لهذا الحد ؟! هل كانت تحبه ؟!)

عندما عدت لغرفتي قمت بنشر رسالتي لصفاء، حصلت على الكثير من الإعجابات حتى إنها أعجبت صديقه المقرب. كنت أتمنى من كلماتها أن تصل إليه شخصياً، ولا أعلم هل وصلت أم لا !

في اليوم التالي ذهبت للتحرير، والعجيب كان توافد الناس بإزدياد، والأمر الذي أخذ لبي من عقلي هو وعي الناس وثقافتهم، حيث قام مجموعة من الشباب بتعليق صور للشهيد صفاء ومن معه، وعلقت كلمات له على أفواههم يرددونها بين الحين والآخر. ومجموعة أخرى وضعوا مكتبة على الطريق لكي يقوم الثوار بالقراءة، وآخرون يقومون بتنظيف الشوارع، كما قام أبطال المطعم التركي

بتشــغيل النشــيد الوطني لترفع الدموع في حضــرة الوطن، وتصبح تكبيرة واجبة الأداء. رأيت آزاد حيث كان جالساً في أحد الخيم التي نُصبت من قبل المتظاهرين.

- هل ترى يا آزاد دموعهم تغطي تلك الوجوه التي علاها تعب أكتوبر. رحت أبكي، فقال لي: لا تبكي يا ديانا.

فقلت له وأنا أنظر إليهم من غير شــعور، وأتذكر صــفاء كيف كان بالأمس واقفًا وسطهم:

- يا آزاد لا أتخيل أنه الآن تحت تراب معشــوقه، ولا أريد حتى أن أصــدق هذا.

بعد أن أتممت عملي وقمنا بحملة تنظيف مع من كان موجوداً من الشــباب، قام آزاد بإيصــالي للمنزل. رأيت أبي ولم يكن بحالة جيدة.

- هل هناك شيء يا أبي ؟

- لا يا أبنتي، فقط قلبي يؤلمني.

- أبي يجب أن نذهب للمشفى حالاً، أين مفتاح السيارة ؟

- لقد بعثتها الى التصليح.

كان أبي يجر أنفاســه بصــعوبة، ثم ســقط من طوله على الأرض، صــرت أدور حول نفســي، وأنا في صــدمة وخوف وقلق مما يجري أمامي، ناهيك عن دموع أمي التي امتزجت بصــراخ نديم، رحت أتصــل بآزاد من غير أدراك.

- آزاد عد لي... أبي، أبي، يا آزاد لا أعلم ما به...

- حسنًا دقائق وسأكون بجانبكِ، لا تقلقي.

ما هي إلا لحظات وكان آزاد في المنزل، قام بحمل أبي ثم أوقفنا سيارة أجرة وذهبنا لأقرب مســتشــفى. بعد أن فحصــه الطبيب قال:

- لقـد أرتفع ضـــغطـه كثيراً وهو يمر بنوبـة خفيفـة، لا تقلقوا ســيتعـافى أن شاء الله، ويعود كما كان.

كان الطبيب صغير السن ومتعاطف معي، فهو صديق مؤيد، ولما رآه مني من ارتباك على والدي أخذ يهدئني، ثم يســألني عن أحوالي ويناقشـــني بأوضاع البلد.

- شكراً يا حضرة الطبيب، أعتقد أن عملك أنتهى.

- آزاد ماذا تفعل ؟!

ذهب الطبيب ولم يقل كلمة بل بدا عليه الغضب.

- هل أنت مجنون كيف تحدثه بهذه اللهجة والطريقة ؟

- هـل رأيـتِ كيف كـان ينظر إليـكِ ؟ يتكلم وكـأن عقلـه خـارج رأســـه.

- فقلت لـه: ماذا تقول أنت ؟ لقد حاول مســاعدتي إنـه صــديق مؤيد، ثم من أنت لتقول هذا ؟ هل فقدت عقلك ؟!

جاء العم بطرس والخـالـة مريم، وأســرع آزاد بـالإبتعـاد من أمـام نـاظريّ، لحقت به ثم قلت له:

- لـم يكـن خطـأك كـان خطـأي أعتـذر على إزعـاجـك في هـذا الليـل يمكنك الذهاب.

- لا أتركِكِ وحدكِ.

- رفعت يدي أمامه ثم قلت: إياك والبقاء أمامي لثوانٍ حتى.

حملت نفسي وغضبي ثم عدت لأبي.

- آزاد

أجل يا ديانا معكِ حق، فمن أنا بالنسبة لكِ لكي أتدخل بمن يتكلم معكِ أو ينظر إليكِ!

جلســت في باب المشــفى والأفكار في رأســي بها عمليات قيصــرية، مـاذا فعلـت ولمـاذا عـاملتني ديـانـا هكـذا؟! ثم أنـا كيف أســمح للغيرة أن تتسلل بداخلي؟ وكما قالت من أنا؟.

- ديانا

من يظن نفســه ليتدخل هكذا؟ ويبقى اللوم عليّ لماذا أتصــلت به وبينت حاجتي إليه، لقد ارتكبت خطأً كبيراً.

بعد ساعة خرجنا جميعنا من المستشفى، فنظرت وإذا به يقف عند الباب، وضعنا أبي في سيارة العم بطرس.

- هل تحتاجون شيئاً؟

- شكراً لك.

لم أنظر إليه قط، ركبت السيارة بسرعة، راحت أمي والعم بطرس يتشكرون منـه ثم أصـرَّ عمي بطـرس أن يوصـلـه معـه ولكنـه رفض ذلـك. عندما وصـلنا للبيت وضـعنا أبي في سـريره، ثم ذهب العم بطرس والخالة مريم متمنين له الشفاء.

لا أعلم ما الذي أصابني، كنت منزعجة جداً، بعدها بدقائق جاءتني رسالة: (أعتذر لم أقصــد ذلك) قرأتها ولم أُجب عليها، خلدت للنوم وأنا في ذروة الـعصــبـيـة عـلـى مـا أقـتـرفـه آزاد بـحـق الـطـبـيـب، بـل وبـحـقـي. في صــباح اليوم التالي، أســتيقظ الجميع وكان أبي يقف في حديقة المنزل كعادته، يروي مزروعاته كما يروي قلبي بضحكته.

- كيف تشعر يا أبي ؟
- قال مبتسماً: بخير يا صغيرتي، ديانا ؟
- نعم أبي ؟
- هل كان آزاد في الأمس معنا ؟
تلكأت قليلاً، أدرت وجهي ناحية وردة الجوري، أستنشقت عطرها الفواح.
- أجل يا أبي، لقد أوصلني للبيت من الساحة ثم حدث ما حدث.
- حسنًا.
جاء العم بطرس فتركتهم يتحدثان معاً وذهبت لغرفتي.
- بطرس من آزاد هذا ؟
- إنه ولد شجاع نبيل وطيب القلب، لم أرَ السوء منه أبداً يا جلال.
- ولكني كرهته يا بطرس ؟
- ماذا تقول ؟ ولماذا ؟
- أخشى أن تقع ديانا في حبه، وأنا لا أتحمل أن تعشق ديانا رجلاً غيري.
- آه كلا. دعك من هذه الإنانية، وأنت كيف قمت بأخذ فضة من أهلها ؟!
- لا أعلم يا بطرس لا أريد رؤيته.
- تذكرني بمحسن يا جلال، إلى الآن يكره زوج ابنته على الرغم من طيبة الرجل المسكين.
- معه كل الحق يا عزيزي بطرس.

بعض الليالي تشرق الصباح

الحادية عشر ونصف بعد بسط الليل وحشته، نافلة الكبرياء تسجد في منتصف الليل، ترتشف النبيذ من كأس الهموم، ترمي بالقنينة من أعلى نافذة الروح، لا خمر بها، لا تقوى على الوقوف، تكسرك وتنكسر. وها أنا أقف عند النافذة لا أقوى على الحراك كآخر قنينة كان يمسكها زوج جارتي قبل أن يُقتل في ساحة التظاهرات. يجب أن أخلد للنوم فلا فائدة، يجب على الإنسان أن ينام لكي لا يطول الليل، صدقني يا آزاد عندما أراك سأحسبك كباقي الرجال، كسنان أنت، تريد فرض سيطرتك الضعيفة. لست أقوى على تراميها أمامي، تتجمع صورتها في رأسي فيحويها دماغي كإطار صورة قديمة، ولست مستاء من ذلك. لماذا يا آزاد؟! لا أريد حتى التفكير، دعها تدخل هي وعنادها كبريائها ونظراتها لجوفي ليحل السلام.

عندما يتوقف الزمن في ذاكرتي بضع ثوانٍ أعود بالذكريات لتلك اللحظة التي أخرجتها بها من الماء، عودة سريعة أبتسم كنسمة مسروقة من ليلة من ليالي حزيران، كأن صحراء قلبي مرها ربيع. سأذهب لها غداً وأعتذر منها، لقد تصرفت بهمجية ولماذا غداً؟! الآن.

رحت أرتدي قميصي المعتاد وبنطالي، وتركت شعري على حاله لم ألحق نفسي، خفت أن تنام وهي متضايقة مني.

- ديانا

لماذا لا أستطيع النوم! سأقوم بكتابة بعض الأشياء التي تحوم في ذهني علّها تقوم بتنويمي مغناطيسياً. وضعت الكرسي أمام النافذة، وبدأت أكتب ما يدور في خلجاتي، كانت نسمات الحروف تجتاح نسمات الصيف الحار، عندما أكتب أتخيل أني شخصية هزيلة في رواية تقوم بتفقد الأبطال ومن ثم الدعاء لهم.

- آزاد

كنت واقفاً عند النافذة، اختلس النظر إليها، أتساءل في داخلي من تمكن من غرسكِ في قلبي، أنى لكِ أن تحتلي قلعتي. كانت خصلات شعرها تقوم بتخديري رويداً رويداً، فقط لو ترفع رأسها أقسم أني لو مُت لا يهم بعدها.

- ديانا

شعرت بالنعاس فقمت أعيد مذكرتي ثم أخلد للنوم، هذا يكفي اليوم. وضعتها على مكتبتي لتلتحق بفوضى أخواتها، ثم عدت لاغلق النافذة، ما هذا! نظرت إليه ثم قمت بأغلاق النافذة، هل سأسامحه عند كل خطأ يرتكبه بحقي ؟ ولماذا أسامحه ؟

بعد مرور ساعة

يجب أن يكون قد عاد لبيته، صرت أنظر إليه من النافذة، عنيد، رجل شرقي كدخان سجائره يحترق ولا يبالي.

نزلت إلى الاسفل وقمت بفتح الباب، تقدم نحوي.

- ماذا تفعل هنا ؟

- أعتذر عما فعلته، لم أكن أقصد ذلك.

لم يكن ذاك الرجل الضخم: وماذا تريد الآن ؟

- سامحيني يا ديانا، لا أعلم كيف تصرفت هكذا ولكن أعدكِ أنها آخر مرة.
- يمكنك أن تذهب للبيت.
أغلقت خلفي الباب ودخلت للبيت، ثم فتحت باب غرفتي وقفت خلفه وكاد قلبي يخرج من جسدي، ولكن اهدأ أرجوك اهدأ ما بك؟ لماذا تتصرف معه هكذا؟ ما الذي يميزه عن غيره هل لحيته الشعثة أم شعره المبعثر كما أنا الآن؟ أم سواد عينيه الحاد ونظرته؟ يبدو بمظهر رجل، ولكنه معي كطفل وكأنه خالٍ من أي ذنب! ياالله، خلدت للنوم ولم أكن معي..
في صباح اليوم التالي استيقظت رحت أرى أمي، لم تستيقظ بعد، فعلمت أن المساء طويل. يبقى الليل ليل حتى تستيقظ أمي فيشرق الصباح من نافذتها. وضعت الفطور ثم جاءت أمي للمطبخ، وعلامات التعجب بادية عليها؟
- أبنتي هل أنت على ما يرام؟
- صباح الخير أمي، هيا أغسلي وجهكِ ليتطهر الماء ثم تعالي، الطعام جاهز سأذهب لأوقظ أبي.
طبعت قبلة على جبينه: أحدهم يكاد أن يكون كسولاً !هيا هيا.
- صباح الخير حلوتي.
- صباح المسك يا أبي.
- ما سر هذا النشاط؟ وهذه السعادة؟!
- رؤية وجهك بصحته تكفي لضحكتي جيلًا كاملاً.

صديق الشهيد

بعد مرور أيام قليلة كان المتظاهرون يزدادون يوماً بعد يوم، وتزداد معهم الثقافة ونظافة الشوارع، انتشار الفن والحب بين الناس. لا يزال الأبطال كما هم مرابطين في الساحات، ينظم إليهم المد الطلابي الذي أبى أن يتم الدوام إلا بعد تحقيق مطالبهم المشروعة، والقصاص من قتلة الشباب الذين ذهب دمهم هدراً. ولا يزال هناك آخرون يختفون تحت ظروف غامضة، والمصير مجهول لا نعلم إلى أين، الفوضى عارمة وليس هناك أيّ استجابة ملحوظة من السلطات المعنية، مما أدى الى غضب الشعب، فمن المعروف أن العراقيين كدجلة ظاهرهم هادئ، ولكن داخلهم كأمواجها عندما تغضب.

اتصلت بلين وقلت لها أن تحضر نفسها لكي نذهب إلى التحرير، وكانت سريعة الإستجابة لذلك.

كان العم بطرس قد أودع عندي بعض الكتب، وأريد أن أقوم بوضعها في المكتبات التي نصبت بالشوارع، دلالة على الوعي الشبابي. صحيح أن الساحات آنذاك قد ضمّت العديد من الطبقات الإجتماعية، ولكن شدة التراحم والتعاون والتواضع وكل الصفات النبيلة، كانت مطروحة من قبل الموجودين، بالأضافة إلى سلميتهم التي شككت بها الدولة، وبعض العوائل التي كانت تخاف على مصالحها الشخصية، حيث زعم البعض أن الثوار يقومون بتعطيل أعمالهم!

أخذت الكتب في حقيبة كبيرة، وغيّرت ملابسي، ثم جاءت لين ومؤيد وذهبنا معاً. بعد أن وصلنا أتجه كلاً منا لعمله، حيث ذهب مؤيد للمفرزة، قلت للين أن تذهب معه وسوف أقوم بوضع الكتب ومن ثم ألتحق بهم.

عندما وصلت أردت أن أضع الكتب، فقال لي أحدهم:
- يا آنسة لقد كنت في الأمس في ساحة الخلاني، وكانت خالية من هكذا أمور، وارى أن هنا العديد منها، فلماذا لا تقومون بوضعها هناك ؟ فكرة جيدة آخذ ما معي وأضعها في المكان المخصص في تلك الساحة.
- سآتي معك فمعي بعض الكتب...آزاد ؟ ماذا تفعل هنا ؟
- لقد كنت في الأمس بجانب العم بطرس، وأودع معي هذه الكتب لأقوم بإعطائها للثوار.
صرنا نمشي معاً: يبدو أن علاقتك أصبحت قوية بعمي بطرس!
- هل يزعجكِ هذا ؟
- لا، أدامكم الله! مؤيد سنذهب لوضع هذه الكتب في ساحة الخلاني.
- توخي الحذر لقد كانت في الأمس تشهد هجوماً عنيفاً يا ديانا، ضعوا الكتب ثم عودوا من فوركم، هل هذا مفهوم يا آزاد ؟ خذ هذه مفاتيح السيارة يا آزاد.
ذهبنا بسيارة مؤيد، لطالما أحب الجلوس في محاذاة النافذة، ولو ذهبت مراراً وتكراراً على نفس الطريق، ثم سألني أحدهم أن أصفه له لا أستطيع ذلك. لا أنشغل بالأرض ساعتها، أنشغل بالسماء وأحلامي المتطايرة، أجوب عوالم خاصة بي، مثلاً أذهب في نزهة لبغداد القديمة.
- هل مازلنا متخاصمين ؟
سأل وهو ينظر أمامه، أنزلت رأسي ألاعب أصابعي.
- لا، يذهب كل شيء في أوانه ولكن يا حبذا لو لا يتكرر.
- وهل أنا مجنون لأقيم على رأسي الحرب العالمية الثالثة!
وصلنا للساحة ولكن لم تكن كساحة التحرير، بل عبارة عن خرابة أشبه بمدينة مهجورة، الجميع يجلسون تعبين من هول ما يحدث لهم،

مسطبة ذكريات الورد المتساقط بين أحضان الماضي على أرصفة الزمن، وجوه توضـــأت بتعب أكتوبر، وربيعاً كالعراق! ماذا أريد بعد؟! تقدمنا لوضع الكتب على الرصيف الحاوي خمسة كتب، فكانت فرحة الفتاة التي على رأس المكتبة المفروشة، وكأننا قدمنا لها ماء بعد يوم حار في الصحراء، كفرحة يتيمة يُمسح على رأسها. قمنا بوضعها فقامت بشكري وشكر آزاد،

بعد ذلك جاءت فتاة طويلة القامة تملك معالماً من الجمال البغدادي، تبدو في العشرينات لتأخذ كتاباً من يد آزاد وهي تنظر إلى داخل عينيه، وتكاد أن تمسك يده، لا أعلم ما الذي دفعني للحؤول دونها وآزاد، حيث قلت:

- هيا يجب أن نذهب، مؤيد بأنتظارنا.

نظر إليّ آزاد دنى مني، أبتسم وقال:

- سمعاً وطاعة، فقط أنزلي حاجبك أخشى عليكِ.

من طبعي عندما أتعصب من شيء أقوم برفع حاجبي الأيسر لا إرادياً.

- ماذا ؟! أنا ؟! هل تهزأ بي ؟

- أقسم لا، لا.

- حسنًا مؤيد ينتظر هيا.

كدت أن أقع وأنا أتشاهد على نفسي. ابتعدت عنه ثم جاء في بالي كيف قال ما قال ليلتها للطبيب. ما الذي دفعني لهذا التصرف ما بي أنا ؟! رفعت رأسي فوجدت أحدهم جالساً يبكي، ثم أسند رأسه للجدار وصار يغمض عينيه، عرفت من الصورة التي كان يحملها أن له صديقاً قد قُتل في هذا المكان، تخيلت نفسي مكانه وفجأة ترتبت أشياء في بالي.

هناك على وطن الحب تحت وسادة الدمار، غفت عيني للحظة، نظرت حولي وإذا بالسماء تزينت بالهواء الملوث بالدخانيات، وأما الأرض تعج بالورد الأحمر، هناك حيث اللاشيء أبحث، أفتش بلا وعي، فقط أستمع لصراخ أُناس أكاد من شدة الضجة أن أضيع في أركانهم، ذاك ذاهب وهذا قادم، هناك راكض وآخر مستلقٍ، عفوًا المستلقون كثر!

لا زالت عيناي تبحث وسط صور الصراخ، أبحث عنه في كل مكان في ذاك الظلام، هناك ارى نوراً، أجل إنه نوره المعتاد إنها روحه، أجل إنه هو راكض نحوي، يحتضنني كما يفعل بقوة، ويقول (شنو ولك وين جنت مو كلبت الدنيا عليك) وكأني لبثت ين ذراعيه دهراً من الأمان، وكأنه ملجئي، سكني وسكينتي. أردت أن أنظر لوجهه، أردت أن ألمسه، فجأة ضجّ الوسط، وتعالت الصرخات وبدأت تلك الرصاصات المشؤومة بالعزف، وإذا به بين يدي يستلقي ويقول (شكد أحب ريحتك يبعد هلي) ثم سكون يشيح على معالم وجهه المبارك، أحاول ضمّه من مطر الموت المحتم، كي لا تصبه قطرة، وضعت بي فوقه ولكن أحسست أنه نائم وما أجمل طلته وهو بين ذراعي مغمض العينين، ألاعب خصلات شعره الملوثة بالوطن، ثم جاء أحدهم وأخذ بيده مني. لم يقل لا !! لم يبقَ! لم يسجن نفسه في حضني كعادته! أردت أن أصرخ إلى أين ؟ صرخت بأقوى دمعة ولكن لم يسمع أحد سوى قلبي، لم يسمع أحد! ذهب وتركني خلفه ولأول مرة منذُ أن تعاهدنا ألا نفترق، إفترقنا! تذكرت أجل، تذكرت إني أحلم، حاولت أن أوقض نفسي، فضربت بها في حطام الأيام، اصطدمت بحائط الخراب. أهلت بحزني على وجهي، فجاء أحدهم يمسك بي نظرت عليه وأنا فرح، أشكرك أيها الطيب

يجب أن ألحق بصـــديقي، ولم أكمـل جملتي إلا وقـال لي: البقـاء للـه.
- ديانا ؟!
- آزاد خذني من هنا سريعاً، أريد أن أرى لين أرجوك خذني.
- حسناً، هيا لنذهب.
- لين ..
- ديانا ما بكِ ؟!
رحت أخفي نفسي من هول التصوير الذي رأيته ووضعت رأسي في حجرها.
- ماذا حدث يا آزاد ؟
- لقد رأت صـديق الشـهيد في حالة يرثى لها، ثم أخذت تجهش في البكاء، قائلة خذني أريد أن أرى لين.
- سـيمضـي يا ديانا، سـيمضـي يا حبيبتي، أنا هنا لا أتركك سـيمضـي.
- لم يكن المنظر سـهلاً عليها ولا على أي أنسـان، ديانا من أكثر الناس حساسية، هي حتى لا تتحكم بنفسها في هذه المواقف. سنذهب أنا وديانا للمنزل، واصلا العمل وكونا حذرين.
قام مؤيد بإيصالنا ثم عاد للساحة، وضعتني لين في سريري فأمسكت بها:
- لا تتركيني يا لين أموت.
- أفسـحي المجال لكي أنـام إلى جـانبـك، لا أسـتطيع تركـك يـا ديـانـا، سنعيش معاً ونموت معاً، ليس هناك من يقف بيننا.
- فقلت لها: كيف سيتخطى ذاك الشاب صعوبة الموقف ؟
- أجابت وهي تضمني لها: سيلهمه الله الصبر.
- كيف يا لين ؟
- هو أرحم بحالـه منـا، سـيكون صـديقه الدافع لمقاومة ظلم الحياة، بل سـيتخذ منه مسـنداً، لا يموت الأصـدقاء بسـهولة، سـتبقى روحه

تحوم حولـه، ســتبقى معـه في ذاكرتـه في خيـالـه وحتى ضــحكـاتـه.
- هل ســيعود ذاك الوجه الباكي للضــحك ؟ أجل يا لين ســيضــحك.
- ليضــحك وجهكِ أولاً، أفديكِ يا ديانا لا أســتطيع من دونكِ كوني قوية يا حبيبتي، ديانا ؟ الحمد لله نامت.

الرسالة الأخيرة والعود

مضـــت أيام على ما يحدث، كنا نتواصـــل أنا وآزاد بشـــكل خفيف، لم أكن أســتطع أن أتبع ما يمليه عليّ قلبي، بل أخشــى التفكير بهذا حتى. أذهب للعم محسن لأن سنان لم يكن هناك، مارست العزف على العود، وأوشكت على أن أتقنه، لم يكن العم محسن بحال جيدة كما في السابق وترك الإنتظام بعلاجاته، ولم تكن أبنته تأتي لزيارته، كلما أشــتاق إليها بسـبب حملها، فيداهمه الشــوق والمرض معاً، وهذا ثقيل على الإنســان. كثيراً ما أصــبح يجلس بمفرده في زاوية غرفته، لا يتكلم حتى مع زوجته. عندما أذهب إليه كأني أسقط عليه من السـماء، كثيراً ما يتكلم معي براحة عن الموسيقى والفن.

في صباح أحد الأيام المعتادة حيث العصافير راكدة في أعشاشها،والشمس قد أخذت مجراها للوقوف أمام عمال المسطر. حيث لامست رائحة الشاي العراقي نياط قلبي. اتجهت لكي أذهب للعم بطرس،كانت الشــوارع هادئة،لم يلحظ فيها شيء سوى نور الله، وآزاد!

- ماذا تفعل هنا يا آزاد ؟

- فقال: كما تفعلين! ذاهب للعم بطرس.

- لنذهب معاً إذاً.

- كيف هو حال مؤيد ولين ؟ لم أرهم منذ يومين.

- بخير.

لم نكن نتكلم بكثرة أو بالأحرى كنت أنهي الكلام بكل برود! عندما وصــلنا للمكتبة لم أجد عمي بطرس، وكانت المكتبة مفتوحة، اتصلت به فرنَّ هاتفه داخل المكتبة.

- لا تخافي، أعتقد إنه سيعود بعد قليل، لننتظره هنا.
أخذت أنظر للكتب، أقلّبها بيدي وأبتعد عن نظرات آزاد التي طالما أوقعتني به!
- هل تحبين الكتب كثيراً؟
- أجل لدرجة إني لا أود أن يبيعها عمي بطرس! لقد سألوا صفاء ذات يوم ما أكثر مهنة عملت بها ولم تحبها قط، فأجابهم بيع الكتب.
- تهتمين كثيراً لصفاء، ودائماً ما تكون كتاباتك كرثاء له، ما السر في ذلك؟!
تركت الكتاب الذي كنت أحتمي به، ثم وقفت أنظر للشارع الفقير.
- لم يكن صفاء كباقي البشر، لا تصدقني الآن ولكن هو الشخصية الوحيدة التي استهوتني، صفاء لم يكن من أهل الأرض من البداية، لقد حلّ كضيفٍ ثم رحل. كانت تقول أمي كلنا ضيوف يا ديانا؟ ولكن صفاء ضيف خفيف يا آزاد!
- أرجو أن تكون نهايتي كصفاء ذاك.
- لماذا؟
- لكي أشغل بالكِ وترثيني بكلماتكِ تلك!
رحت أبعد ناظري عنه، واضعة يدي على رقبتي.
- لقد تأخر عمي بطرس كثيراً أين هو الآن؟!
رنّ الهاتف، نظرت إليه وإذا بها الخالة مريم.
- أهلاً خالتي.
بصوت باكٍ هامس: ديانا نحن عند عمكِ محسن هل يمكنكِ أن تأتي؟
- هل ساءت حالته من جديد؟
- أجل وهذه المرة كثيراً.

أغلقت الهاتف وأخذت حقيبتي: يجب أن نذهب للعم محسن يا آزاد، حالته تزداد سوءاً أرجو أن لا يحدث له شيء.
عندما وصلنا دخلت إلى الغرفة مسرعة فوجدته ممدد فوق سريره، يمسك بيد العم بطرس من جهة، وزوجته وأبنته من جهة أخرى، كان سنان يقف بعيداً مكتوف اليدين. تقدمت إليه بكل خطوة دمعة، وأنا أدعو الله أن لا يتركنا.
- ابنتي ديانا تعالي.
كان يلفظها مع أنفاسه الأخيرة، وكأنه يقوم بالعزف على آلته.
- لا تتعب نفسك يا عمي أرجوك، لنتصل بالأسعاف و ..
- ليس هناك من يعرف النفس أكثر من صاحبها يا ديانا، أنا فقط أريد أن أراكم للمرة الأخيرة، لطالما كنتِ أبنتي التي ابتعدت عني وأحببتك بشوقي لها، أريد أن أشكركِ على ما فعلتي لأجلي يا ديانا، لا تعلمين كم كنت مرتاحاً في أيامي الأخيرة والآن أنا أرتاح أكثر يا ابنتي. أشار إلى مكتبه ثم قال بكلمات تكاد تتهاوى: هناك على المكتبة شيئاً لكِ، كلما ضاقت بك الحياة افتحيها، وعودي الذي كنت أرى به بطرس، هو لكِ أيضاً يا صغيرتي.
رحت أنظر إليه ودموعي تتساقط بدل كلماتي فوقه.
- كما تريد يا حضرة الأفندي.
أشاح بناظريه عني يكلم آزاد:
- أعتني بديانا فلا تعطيك الحياة الفرصة كل يوم يا ولدي، وأستمر في بحثك عن الله، هو قريب منك، قريب جداً. أغلق عينيه ورخت قبضة يده، واشتدت معها يد زوجته المسكينة، وكأنه يغط في نومه المعتاد، ولكن من غير نفس. بكى العم بطرس وانحنى فوق جثته،

وأخذ عويل النساء يرتفع، وبقيت أنا في صدمتي لم أكن أريد تصديق ما رأيت.

- أرجوك يا عمي محسن لا تذهب أرجوك.

أمسكني آزاد وضمني لصدره، وأخذ كلاً منا حزنه كما لو كنا نأخذ نصيبنا منه! كان يوماً ثقيلاً جداً، استعد الجميع لتشييع جثمانه ودفنه في وادي السلام، كان أبي مع الرجال وأمي معنا حيث قمنا بلبس الملابس السوداء التي تعتبر رمزاً للحزن، ولكن البيت كان حزيناً من دون هذه الملابس. بعد أن أتممنا المراسيم، قدمنا التعزية لأنفسنا قبل تقديمها لعائلة العم محسن، ثم عدنا للبيت، الجميع عاد لمكان انتمائه، عادت زوجته للسرير الذي يخلو منه ولم يعد هو..

دخلت لغرفتي وأقفلت الباب خلفي نظرت للعود ثم وضعته بجانب قلبي، وبدأت أفتح رسالته.

الرسالة ...

أبنتي الحبيبة ديانا

حالما تقرأين هذه الرسالة من دون شك أكون أنا بعيداً عنكِ. اتجهي يا أبنتي ناحية الهواء وأنت تقرئين، أمسحي الدمعة من عينيكِ البغداديتين، ثم أنصتي لي بقلبك.

كتبت هذه الرسالة في الساعة الحادية عشر وأنا اراقب زوجتي التي تمثل أنها نائمة، أعلم جيداً أنها لا تنام أذا كانت حرارتي مرتفعة، فكيف بها أن تنام الآن وأنا بالكاد أحرك القلم ! لا أستطيع أن أطيل عليكِ، ولكن ديانا كوني حذرة يا صغيرتي من كل شيء، وإذا سقطتي ذات يوم عاودي النهوض، استمري بقوتكِ وإياكِ أن تضعفي ولو للحظة واحدة، أبكي عندما تتضايقين، ولكن ليس أمام أحد، أبكي امام قوتك فحسب

هي وحدها من ستنتشلك من كل شيء. إياكِ وأن يلمس وردتك منجل الحياة، واصلي مسيرتك بالكتابة والشعر، أحب كثيراً قراءة ما تكتبين، يكمن لطفك لي عندما تقولين حضرة الأفندي. كوني حذرة من أن تخسري آزاد، كثيراً ما جاء إلى جانب بطرس وعيناه تبوح بكل شيء، عندما يقوم بالسؤال عنكِ، إنه تائه ولكنه يريد الوصول للبر، عكس سنان الذي يريد أن يكمل مسيرة والده التي أودت به إلى الهاوية، سنان له أب كان يتخذ من الحانات ملجأً له، كثيراً ما كنت أنصحه ولكنه يرفع الكأس ويقول نخبك ويذهب، إلى أن جاء ذاك اليوم الذي كنت فيه عائداً من الصيدلية وأنا أجلب الدواء لزوجتي في منتصف الليل، رأيته مع سنان الذي كان يبلغ من العمر أربعة عشر عاماً، وقع على الأرض وهو ثمل، ركضت نحوه أمسك بيدي وهو يقول، ولدي أمانة لديك، ثم فارق الحياة ومن يومها وأنا أهتم بسنان، وقمت بكفالته إلى أن أصبح ضابطاً في الجيش، يريد أن ينتقم من الحياة وعجزت وأنا أتكلم معه، أبتعدي أنتِ وآزاد عنه يا ديانا، فلا أستبعد حتى محاولته لقتل آزاد فهو يحبكِ ولكن بقلب أسود.

ديانا العود أمانة لديكِ تذكريني كل ما عزفتِ عليه أو نظرتي إليه. يقول " نيتشه" أن الموسيقى ألغت أحتمال أن تكون الحياة كذبة. إياكِ وأن تتنازلي عن حب الوطن بداخلكِ، وأخيراً يا صغيرتي أذا جاء ذاك اليوم الذي تتزوجين به من آزاد، لا تتركي والدكِ، لقد أخبرني بطرس أن أباكِ يكره آزاد، يخشى أن يأخذكِ منه، أتفّهم وضعه في الحقيقة أن أكثر شخص مكروه على وجه هذه الأرض بالنسبة للأب هو ذاك الذي تقع أبنته في حبه .. في أمان الله وحفظه يا أبنتي

عمكِ الأفندي.

نعيش رغماً عنا

بعد أن توفي العم محســن، حتى العود بات حزيناً. الســماء لا تود الخروج من الليل، تصــدأ بظلامها وتجامل الصــباح كل يوم، الشــتاء يحترق من داخله وكأن حفلة شواء تقام على شرفه في منتصف قلبه.
كثر عدد الشـهداء الذين إلتحقوا بصفاء، وما زال العدد بإزدياد فوق ذلك، يصــرخون لن نتراجع فدماء الشـهداء خلفنا، إذا عدنا سـنسـحقها وهذا إثمٌ كبير.
آزاد كان يقف أمام النافذة لا يصــدر أي صــوت بذلك الهواء البارد، ارتديت سترة خفيفة ثم خرجت لأراه.
- ماذا تفعل هنا ؟!
- كان عزفكِ جميلاً حتى أحسست إني داخل سيمفونية حادة.
نظرت إلى العود مطولاً: هذه رغبة العم محسن.
- رحمه الله ..
- عجباً قبل أيام كان معنا واليوم نترحم على روحه!
- هـذا هو عمـل الرب، يقوم بـأخـذهم واحـداً تلو الآخر ويجبرنـا أن نكون متناقضين مع رحمته.
- اللـه لا يجبر على شـــيء يـا آزاد بـل يعطي لكـل منـا شـــارع وعجلـة، يمولنا بالبنزين ثم يترك لنا المقود.
- ومـاذا تصـــفـيـن فـعـلـتـه بـأخـذه أمـي أبـي والـعـم مـحـســـن، وضــعكِ هذا وحزنكِ الذي طغى على عينيكِ التي كانتا منبعاً للدفء ؟!
- أن الله يأخذ من يحب لجواره.
- ومـاذا عـمـن يحـبـون الـذيـن يحـبـهـم، هـل هـو أنـانـي لـهـذا الـحـد ؟

رفعت رأسي إلى السماء، نظرت للنجوم ثم قلت له:
- إن اللـه يحـب الجميع وسـيـأخـذهم يومـاً مـا إلى جواره جميعـا، من كان أقربهم إليه يأخذه بسـرعة، وأما الباقين فمتى ما أكتمل العشـق الإلهي لديهم يأخذهم.
نظر لي ثم قـال: والـذين يقتلون، المفسـدون الأغبيـاء الـذين يظلمون، هل يحبهم وإذا كان لا، فلماذا خلقهم؟
- لله في خلقه شـؤون، لم يكن من دواعي سـرور الله خلق بعض البشـر، ولكن لكل قاعدة شواذ.
تنهـد قليلاً ثم مـالّ برأسـه: مـا ذنـب الأطفـال الـذين يتركهم أبـاءهم؟
- وهـل أنـت أرحم بهم منـه؟ هـل أنـت من يرعى النبتـة في الصـحراء أم تطعم النملة في جحرها.
- من هو الله يا ديانا؟
- ذلك الذي تنام مسـاءً وكلك معاصٍ فيوقظك صـباحًا لتسـتمر بالتنفس، تقوم بقفل الباب لتعصـيه فيقوم بإدخال الهواء لك من تحت ذاك الباب.
رنّ الهاتف..مكالمة جماعية مؤيد ولين.
- أهلاً.
- أهلاً بكِ لين.
- كيف حالك يا آزاد ماذا تفعل عندك؟
- كنت أبحث عن ضآلتي فوجدتها.
- استعدا سنخبركما بشيء.
- حسناً وما هو؟
- لا سنأتي بعد قليل ونخبركما، نحن في الطريق.
- حسناً.

- هنيئًا لكِ لديكِ أناس يحبونكِ جداً.
- وأنا أحبهم للحد الذي لا يمكن تصـوره، لين هي بذرتي أختي وصـديقتي، إنعكاســي في المرآة، ومؤيد أخي الذي لطالما كان برفقتي. ســعيدة جداً لإجتماعه بلين، وهكذا سأكون أنا الآمر الناهي في هذه العائلة أن شاء الله.
وصلا: أهلاً حبيبتي لين، أهلاً مؤيد.
- كيف الحال أهلاً بكما، أهلاً بك يا آزاد. لدينا خبر لكما. ســيتم زفافنا الخميس المقبل، من بعد إذن ديانا طبعاً.
- آه صغيرتي ستصبح عروساً لأخي.
رحت آخذها بين يدي وأضــعها في قلبي من شــدة فرحي، رأيت آزاد يقوم بإحتضان مؤيد ثم وشوش مؤيد في أذنه. فقلت:
- ماذا هناك ؟
- لا شيء كنت أخبره عن المؤامرة التي بإنتظاري.
- ههههه، لا نحن الفقراء إلى الله.
- واضح ديانا واضح.
- حسناً يجب أن نقوم بالتحضيرات سريعاً، تعالا لنخبر أمي وأبي.
دخل مؤيد وديانا وبقي آزاد في الخارج، أراد الذهاب.
- توقف ألا تريد الدخول ؟
- شكراً ديانا، ليس الآن سأقوم بزيارتكم في وقت لاحق صدقيني.
- كما تشاء، إلى اللقاء.
- ديانا.
- نعم ؟
- شكراً ..على كل شيء.
تقدمت منه: لم أفعل شيئاً يا آزاد.

- بلى فعلتي يا ديانا.
ذهب وكان مثقلاً بنفسه وكأنه يجر حقيبة ملابس بالية كبيرة ورثة، تلاشى من أمام ناظري رحت أدخل للبيت فوجدت لين قد أخبرتهم بكل شيء.
- آزاد
تدفعني ديانا لتقبل نفسي في كل مرة ابتعد فيها عن ربي ، ولكن ما هذا التيه الذي وضعتني به ؟! هل أنت حقاً تحبنا يا لله ؟ إذا كنت كذلك أوصل سلامي لوالدتي. وكأني كنت عائداً من نفسي أحملني فوق أكتافي، والطريق مليء بعثرات الزمان المكوّمة كصخورٍ صلبة، تكفي للإيقاع بتفكيري الشارد، البرد كان لايزال يستطيع السيطرة على رجفتي الخائفة. لم تكن ليلة ذات قمر بل كانت ممزقة الرداء، وكأنها تعود للتو من شجار مع النهار، فأصبحنا نحن الثلاثة أنا ونفسي والليل، نبحث عمن نستطيع الهروب إليه، تتخذ الأغاني التي كان يرددها صاحب الحانة بصوته الثمل طريقها على مجرى خدي، لم يكن الوقت المناسب لها ولكنها تتخذ وقتها رغماً عني ! ألتفت لنفسي وإذا بي في التحرير..
- ديانا
مضت الأيام سريعة كنا نقوم بالتجهيز للعرس، كانت أياماً حافلة بالتعب، لين معي ومؤيد مع آزاد، لم يشأ كل من لين ومؤيد أن يكون العرس كبيراً، بل عرس بسيط أحتراماً لأرواح الشهداء، واحتراماً للعم محسن.
- ديانا هل تدركين أن غداً يوم زفافي ؟
- أجل يا حبيبتي لطالما كنت أنتظر أن أضعكِ في يد من يقوم بحمايتكِ لباقي عمركِ، وها أنا سأضعكِ بيد أكثر البشر طمأنينة.

- ديانا هل أكثر البشر ؟
- إلى ما ترمين ..؟
- لا شيء ولكن آزاد ؟!
قمت من فوري: آزاد مجرد صديق ألامس أفكاره أحياناً، يقوم بالإنصات إليّ ولا شيء آخر.
- حسناً الأيام بيننا.
- لين دعي هذه السخافة وتعالي لننام، فغداً ينتظرنا يوم طويل. خلدنا للنوم وكانت لين تضع رأسها على كتفي، ورحت أفكر بما قالت، أغمضت عيني ونمت وأنا أمسك كلتا يديها.
كانت الشمس مشرقة والضباب قد غطى النافذة، لين تغط في نومٍ عميق.
- حلوتي استيقظي يا لين هيا حبيبتي.
- صباح الخير.
- صباح النور، هيا علينا أن نفطر ثم نذهب للتجهيز.
بعد أن أكملنا طعام الأفطار أخذنا أشياءنا ثم اتجهنا لأستوديو التجميل النسائي، في حين اتصلت بآزاد أخبرني أنهما يتجهزان. أكملت تلك المرأة تجميل لين فوق جمالها، وزادتها جمالاً ضحكتها وهي تقول:
- ديانا لم يسبق لي أن أراكِ هكذا، فستان طويل، مكياج وحذاء عصري ذو كعب عالٍ! ارتديت فستاناً ماروني اللون، وكعب أسود وضعت شعري على كتفي، وكانت بعض خصلاته سارحة على وجنتي.
- لا يا لين بل لم أرَ أجمل منكِ عروساً في العالم.
أخذت تمسك بيدي: ديانا سأسمي أبنتي على أسمكِ وهذا وعد مني. ابتسمت قائلة: بلا شك يا حلوتي. أسمع صوتاً لقد وصل مؤيد.

جاء مؤيد يرتدي بدلة سوداء وربطة عنق حمراء، أمسك بيد لين وأمسكتُ بيدها من الجهة الأخرى، عندما خرجنا وقعت عيناي على شاب أسمر ملتحٍ، بشعر جميل مسرّح، يرتدي بنطالاً أسود وقميصاً أسود مفتوح من الصدر، مع سُترة بيضاء وحذاء أبيض. نظر إليّ ولم يحرك ساكناً، كان من المفترض أن يقوم بفتح الباب للعروسين، ولكنه كان واقفاً منتصباً لا يحرك ساكناً.

- أحم ..يا أخ متى ستفتح، عروسي تجمدت هنا ؟!

فتح الباب ودخلت لين ومؤيد، ثم فتح لي الباب الأمامي:

- تفضلي.

- شكراً لك.

جاء ليقود السيارة ومن خلفنا عوائلنا، وبالتأكيد مع العم بطرس والخالة مريم ليباركان لنا الزواج ببركة المسيح والعذراء وطيبة قلبيهما. عندما وصلنا القاعة نزلنا جميعاً من السيارة، كانت الأجواء بسيطة وجميلة لم يكن في القاعة سوى أقرباء لين ومؤيد وبعض أصدقائه. كان آزاد محط أنظار الفتيات وهناك من يذهبن ليحدثنه، ولكن لم يكن مع أي واحدة منهن، ومع ذلك كنت اشتاط غضباً عندما تقوم أحداهن بممازحته. لا أبدي ردة فعل معروفة ولكن داخلي كان يشتعل ولا يدفئه حتى برد ليل الشتاء القارص.

- مرحباً.

- أهلا أيها الطبيب.

جاء ليخلص تلك الفتاة من نظراتي القاتلة.

- كيف حالك ديانا، سعدتُ برؤيتكِ من جديد ؟

كان يتحدث معي وينظر إليّ بنظرات غريبة، وكأنني حبيبته بل حتى إني سئِمتُ من الحديث معه منذ بضع كلمات!
- مرحباً أيها الطبيب.
- آزاد ؟ كيف جاء ومتى ولماذا تبدو عيناه هكذا على هذا الطبيب.
- كيف حالك؟ هيا يا ديانا نريد أن نلتقط صورة مع العروسين.
ذهبت معه وأنا أنصاع لأوامره من دون أيّ تردد، وكأنه يحرك آلة بين يديه أو به مستشعر لأقوم بتتبعه. وقفت إلى جانب لين، ووقف آزاد مع مؤيد ثم قمنا بتصوير بعض الصور الفوتوغرافية. عندما انتهى الحفل ركبنا السيارة معاً كما جئنا أول مرة، وقمنا بإيصالهم إلى بيت مؤيد. بعد أن أنتهينا وضع آزاد مفتاح السيارة بيد مؤيد قائلاً أنه سيوصلني للبيت ثم يذهب لبيته.
لم تكن المسافة بعيدة عن بيتي، ارتديت سترة خفيفة ثم واصلنا السير، لم نكن نتكلم بشيء أصعب مايدور بيننا كانت هي لحظات الصمت المفرطة، قام بنزع سترته البيضاء ووضعها فوق كتفي.
- الجو بارد ارتديها.
- شكراً لك.
كان يبدو كرمزٍ إلهي هبط ليقوم ببث الطمأنينة في داخلي، كلما نظرت إليه أشرد بناظريّ عنه.
- لماذا لا تنظرين إليّ عندما تتحدثين معي ؟
- هذه طبيعتي، لست أنت فقط.
من تلك التي كانت إلى جوارك في الحفل، وددت كثيراً أن أسأله ولكن شيء بداخلي كان يمنعني بقوة، تتم الأسئلة والأجوبة بداخلي

فأقول وما شـــأني! كان الجو بارداً والنجوم مبعثرة في الســـماء لتزينها، كل شيء كان على ما يرام لو لا وصولي للمنزل !

- هيا لقد وصلت.

- هل لي أن اسألكِ سؤالاً؟

- تفضل!

- لماذا تحبين صفاء لهذا الحد؟!

نظرت جانباً ووضــعت يدي فوق الأخرى أخذت أعيد أحداث التظاهرات والأشياء التي أعرفها عنه، وما كتبت حوله من نثر:

- صفاء طهر وجهه تلامسه زقزقة عصافير الفجر، هو حانة ثملة بالإنسانية، مئذنة الجياع وأجراس كنائس الفقراء.

أخذ نفسًا عميقاً ثم قال بصوت منخفض: أنا أحسده هناك من يستمر بحبه حتى موته.

- ستجد من يحبك لهذا الحد يوماً.

نظر بـداخـل عيني وكـأنـه يعبـث بهمـا، رفع حـاجبيـه ثم قـال: آمين دخلت للبيت وذهب هو في طريقه، كنت أصــعد الســلم وأنا أظن أني في بـاحـة المنزل، وصــلـت لغرفتي ووقفـت اســتراتيجيـاً أمـام المرآة، مـاذا يقصـــد بتلك النظرات؟ لمـاذا لا يطيق رؤيـة ذاك الطبيـب معي؟ ما هذا؟ آه، إنها ســترته يا ويلي كيف نســيتها. جلســت على الســرير بتعبي خلعت حذائي ولم أخلعها بل نمت بها من غير إدراك!

- آزاد

هـل بـهـا ســـحـر أم تـقـوم بـتـعـذيـبي؟ لـمـاذا هي مـن دون الـجـمـيـع وكأنها الوحيدة في هذا العـالم؟ كيف يمكن لداخلي أن يدفأ كلما تذكرتها؟! عنـدمـا أراهـا أتمنى أن أقول لهـا ثوري، أجـل يـا ديـانـا ثوري، واجتـاحيني،

اقتلعي حواجز كبريائي، اسرقيني مني، خذي كل تفاصيلي، خطي بنفسك عليّ، اقتلعي كل برودي، أشعلي النار فوق الجليد، سأنهار بكل قوة فأنا التائه بحضرتكِ، ثم أرفعي قلب الإنتصار، آه يا قاب قوسين من روحي ما للصوت لا يصل.

- لماذا كنت تتجول برفقة ديانا يا آزاد ؟

ألتفت وإذا به سنان: ماذا تفعل هنا يا هذا ؟

- ألم أحذرك من الإقتراب منها ؟

- أقدر حزنك على العم محسن وأحترمه لدرجة إني لا أريد ضربك، ولكن أقسم إني أقتلك لو نطقت أسمها ثانيةً.

- سترى من يقتل الآخر يا آزاد.

ذهب وأختفى في الظلام مع تهديداته التي كانت لقلبي هواء في شبك. عدت أنا لحيرتي الجميلة، بل كنت أأنس بضياعي فيها، عندما رأيتها أول مرة في النهر خطفت ناظري وفي عرس حسام أكلت عقلي، وها هي اليوم تأسر قلبي ماذا أفعل أيها الرب هل لك أن تدلني ؟ أم ستتركني وكأنك لم تسمع كالعادة.

حبٌ وحرب

استيقظت في صباح اليوم التالي بصدمة دامت لثوانٍ، ما الذي جاء بهذا إلى هنا ؟! رفعت شعري عن وجنتي، أغمضت عيني وتذكرت البارحة كيف أوصلني آزاد للبيت، ونسي هذه معي. عطرها طيب ملمسها يذكرني بيديه، تمنيت لو أحتفظ بها ولكن سرعان ما اعتدلت بجلستي، واستفقت من خيالي، وكأني أخذت صفعة من كبريائي!

جهزت نفسي للذهاب لعمي بطرس للمكتبة، ومنها أذهب للساحة، وأعطي هذه لآزاد، ولكن كيف سأخرجها أمام والدي ؟! لقد لاحظ جيداً أقتراب آزاد مني في هذه الآونة وسمع العم محسن رحمه الله يوصيني بي. آه ... سأضعها في حقيبتي ثم أخرج بسرعة.

- صباح الخير جميعاً.

- صباح النور، تعالي لتناول الفطور معاً.

- أتيت يا أمي.

بعد أن انتهيت اتجهت لمكتبة عمي بطرس، في الطريق صادفت سنان وتعاملت معه وكأني لم أرَه.

- ديانا توقفي.

لم أكن أريد التوقف ولكن قلت عليّ أن أتخلص منه: ماذا هناك ؟

- أنتِ تعلمين مدى حبي لكِ يا ديانا، أرجوكِ لا تتركيني كما فعل عمي محسن.

لا أعلم ما الذي أصابني عندما قال هذا، حتى إن قلبي رقَّ لهول المنظر، وضعت يدي على ذراعه.

- أرجوك تفهّم يا ســنان، لا يأتي الحب بدافع الشــفقة أو القوة والبطش، وأنا لا أستطيع أن أراك كما تريد أنت.

أخذ يقترب مني وهو ينظر للأمام، ثم قال رافعًا يده ليزيل خصلات شعري: لا عليكِ المهم أن أراكِ بخير.

ابتعدت عنه وأنزلت يدي من على متنه: يجب أن أذهب عمي بطرس بإنتظاري.

- كما تشائين.

عندما اســتدرت وجدت آزاد واقفاً خلفي من غير حراك، نظر إليّ بنظرة مقززة ثم عاد أدراجه. رحت أصــرخ خلفه ليقف فتوقف.

- ليس الأمر كما تظن يا آزاد.

ظل واقفاً وظهره لي، استدار نحوي نظر بداخل عيني:

- ليس من شأني أن أتدخل بكِ، أفعلي ما يحلو لكِ.

لم أكن أنتظر هذا الرد البارد منه، أحســست إني ضعيفة، لماذا ركضت خلفه وبت أشرح له وأبين الموقف!

- حسناً خذ هذا لقد نسيته بالأمس معي.

أعطيته ســترته ثم ذهبت من فوري، دون النظر إليه حتى. لماذا عاملني هكذا! كيف لم يظهر غضبه؟ وماذا يعني إنه ليس من شــأنه. يا ديانا كم أنتِ متناقضــة ،تارة ترفضــين تدخله بكِ وتارة أخرى تنزعجين من عدمه.

- كيف حالك يا عمي؟

- مشتاق لمحسن. لماذا أسمع بداخلي نحيب الأم العذراء وصراخ يوحنا، ونظرات اليســوع فوق صــليبه، وكأن كل الكنائس مهجورة، أشعر وكأني راهب يناجي الرب في الصحراء.

- هل أعزف لك لترتاح ؟
- أكون ممتناً لكِ يا ديانا.
أخرجت العود ورحتُ أعزف عليه، أخذنا العزف لغير دنيا، الموسيقى أجمل قَتيل في حضرة الأوهام. لم يكن من السهل أن يفقد الإنسان صديقاً كالعم محسن، ولا ألوم عمي بطرس بحزنه عليه، فلا أتخيل عيشي من دون لين لحظة واحدة!.
- آزاد
غبية، أجل غبية كيف لها أن تقف معه وتسمح له بلمسها ؟ هل تريد مني أن أرتكب جريمة ؟! وأنت أيها الأحمق لماذا ؟ لماذا لم تذهب وتضربه في وقتها ؟ لقد كان حلالاً دفنه في ساعتها. تباً لكل شيء تباً.
- ديانا
بعد أن انتهيت من العزف.
- سأذهب قليلاً للتحرير ياعمي.
- كوني حذرة يا بنيتي.
بعد أن ودعته ذهبت للساحة ولم أكن أريد رؤية آزاد، فقررت أن أذهب لساحة الخلاني، وهناك أشترك معهم بالفعاليات التي ستقام. لم تكن الخلاني كساحة التحرير بل كان يكسوها الدمار. المتظاهرون متعبون لدرجة الإنهيار، ولكنهم كانوا يقفون صامدين، رغم البرد والجوع الذي أصابهم، وأصاب بعضهم اليأس فكأنهم خرجوا من حانة الضياع للتو. كانت هذه الثورة دافعاً لكثير من الفنانين والأدباء فترى إبداعاتهم نقشت على الجدران، وبعضهم كتب ما كتب برثائهم، والآخر كان يتغنى بشعر يخرج من حباله الصوتية التعبة الهزيلة

جرت أحداث الخلاني على جزئين، حيث قامت قوات (الشغب) بل كانت مكافحة الشعب! فهم ليسوا من الجيش وإنما ميليشيات وأحزاب أرادت أن تفتك بأرواح الناس، بوضـع "صـبات كونكريتية" في بداية السـاحة، الجهة التي تؤدي لسـاحة التحرير، لأن المتظاهرين كانوا قد تمركزوا فوق جسـر (السـنك) القريب من سـاحة الخلاني، حيث يربط السـنك مابين الكرخ والرصـافة. لم أكن أدرك أن هناك خطوة تصـعيدية سـيقوم بها المتظاهرون، كنت داخل إحدى المفارز الطبية أعمل وكان الوضـع هادئاً تماماً، بعد قليل سـمعنا أصـوات مكافحة الشـغب تقوم بإطلاق النار والقناني المسـيلة للدموع، كنت في الخيمة الواقعة في الخط الأول، فجاء المتظاهرين لإخراجنا ولكن عند خروجي انفجرت على مسـافة كافية للإيقاع بي، قنينة مسيلة للدموع، وسقطت على الأرض أسمع فقط أصوات من حولي، ولا أسـتطيع فتح عيني. سـمعت أحدهم يقول: ابتعدوا عنها، ابتعدوا.

وقام بحملي رغم رائحة القنينة، ولكني أشـم رائحة تلك السـترة، فتحت عينيّ بصـعوبة كبيرة أنظر للحية آزاد ووجهه القلق، وهو يقول: تحملي يا ديانا تحملي ستمضي.

اختلط صوته بأصوات الرمي الكثيف والناس المفجوعة، وكثير من الضجة التي لم أعد أستطيع تمييزها، عدت للنوم بحضنه وكأني في داخل غرفتي.

عندما صحوت وجدت نفسي في المستشفى، وكان الجميع فوق رأسي، أبي أمي لين ومؤيد.

أين آزاد يا لين ؟

حمداً لله على سلامتكِ يا حبيبتي.

كانت لين تبكي وأمي ليست بحال أحسن منها.

لين أين آزاد ؟
أنا هنا يا ديانا لا تخافي.
نظرت إليه وتمعنت به ثم قلت: الحمد لله
كـان أبي يتشـــكر من آزاد بقوة، بـل ويثني عليـه بقولـه لـه، يـا ولـدي.
ثم قال لي:
أعتذر يا أبنتي من الآن فصاعداً لن تذهبي لأي مكان.
لم تكن لديّ القوة الكافية لأناقش والدي، فاكتفيت بالصـــمت. بعد أن وصـــلت للبيت وتركني الجميع في غرفتي، إلتقطت هاتفي واتصـــلت بآزاد.
- شكرًا لك، ولكن كيف علمت إني في ساحة الخلاني ؟!
- من عمي بطرس!
مال بصوته قليلاً ثم قال: ذهبت إليه بعد أن غادرتي كنت أرتاح إلى جانبه، ولا أعلم لماذا سألته هل عادت ديانا للمنزل، فأخبرني أنكِ ذاهبة للساحة. بعد أن وصـلت للتحرير سـألت عنكِ الموجودين في مخيم الطوارئ، فقال أحدهم إنه رآكِ تذهبين لسـاحة الخلاني، بعدها سـمعت صـوت الرصـاص وأتيت راكضاً بلا قدمين !
- جاءتني رسالة سأتكلم معك لاحقاً، إلى اللقاء.
(مرحباً آنسة ديانا، نحن مجموعة من الكتّاب نضع أعمالنا الفنية البسيطة في كتاب نصور به فوهة الحروب الزهرية، هل يمكن أن نضـم إليه الرسـالة التي كتبتها للشـــهيد صـــفاء، لقد رأيناها في متصـــفحكِ الشـــخصـــي، وأيضـــاً لو تبعثي إلينـا ببعض مؤلفـاتـكِ ســـنكون شـــاكرين لجهودكِ)
سـقطت دموعي عندما قرأت الرسـالة، رغم بسـاطة الأمر ولكني كنت فرحة وسعيدة للغاية.
بعث إلي آزاد برسالة (هل انتهيتِ ..؟)

فكتبت له (سأكلمك في الثانية عشر ..)
من بعث لها برســالة وقام بقطع مكالمتي معها، من يا ترى ؟! لين عروس جديدة وهي لا تحدّث أحداً مطولاً على الهاتف غير لين. هل يعقل أن يتصل بها سنان؟ لا، لا حسناً ستخبرني عندما أتواصل معها.
بعد مرور دقائق !
قالت سأعود عند الثانية عشر، ذهبت هي لتقضي عملها الذي قضي عليه بين يديها، لطالما كنت أحلم أن أكون مكانه. انتظرتها وعلى ما يبدو أن ميلا الساعة كانا متخاصمين، أحدهما لا يريد الإلتحاق بالآخر، صرت أقنع هذا بالذهاب وذاك بالوقوف، بت أتوســل إليهما وبعدما التقيا وصــلتني رسالة فصرخت من شوقي وأنا أقرأ. (أعد التعبئة حالاً رصيدك...) اللعنة.
- ديانا
(لا أعلم أقوم بشكر صفاء أم العراق وأوضاعه، فلي الشرف الكبير لأنتمي إليكم. ديانا.)
بعثت لهم بها ورحت أجوب أرجاء الغرفة فرحة بما حدث. ياالله نسيت آزاد أنها الثانية عشر والنصف اتصلت به.
- أعتذر كثيراً يا آزاد.
- أين كنتِ؟ هل حدث شيء ؟!
- لا، أجل حدث يا آزاد، لقد تمت مراســلتي من قبل مجموعة كتّاب، ليضعوا رسالتي لصفاء وبعض من مؤلفاتي في كتاب لهم سيصدر قريباً.
- فرحتُ من أجلكِ يا ديانا، أنت تســتحقين أكثر، لطالما كنت معجباً بما كنتِ تكتبين وتقومين بوضعه على مواقعكِ الشخصية، أهنئُكِ من أعماق قلبي.
- شكراً آزاد، سأخلد للنوم الآن، عمت مساءً.

- ليلة سعيدة.

وضـعت الهاتف على صـدري ورحت أحتضـن سـترتي التي باتت بالأمس بجانبها، وأنا أشـتعل غيرة لأنها لامسـتها، هنيئاً لكِ يا عزيزتي. قرّبتها من أنفي، شممت رائحتها النرجسية التي أحاطت بها سترتي الباهتة لتبث بها الحياة بعد العدم. تمر في بالي فتبعثرني فكيف إذا مرّت بحينا ؟! غفوت على ضحكتها الفرحة ودخلت بغيبوبة الأوهام أثمل كيفما أشاء بها.

ولنا في الحياة حياة

قبل أيام تلقينا خبر قتل الناشــط المصــور أحمد مهنة، كان فقده فقداً للبسمة العراقية ولصور الحقيقة. كل يوم أصبحنا نودع أشخاصاً لا نعرفهم، ولكن تبقى بصــماتهم في قلب الذاكرة. على ما يبدو أنه ذهب لصــفاء، أجل فحب الوطن يجذب بعضه بعضاً، لا شك أن الأدب وعشق العراق الممزوج بالشــعر ورائحة البارود المتيمة بالشــباب، يحتاج لإعلان معنون ببسمته. لم نكن ننتظر الكريسمس هذا العام لا بفارغ الصبر ولا بشوق، بل تمنينا محوَهُ أصلاً، لذلك قرر مجموعة من الشباب أن يشعلوا الشموع في الســاحات التي أعتصــم بها الشــباب، ويرفعوا نخب الحرية للســماء. يقومون بالدعاء وكل طائفة تناجي ما تعبُد. لم أكن أريد المكوث في المنزل، ولكن والدي لم يرضَ أن أنزل للســاحة، فقمت بإيقاد شــموعي في فناء المنزل، وقمت بفتح الباب لأســتمع لما يقال في الخارج، ورحت أتغنى بأشــعاري الوطنية المعتادة أســتمع لمظفر تارة وأخرى لصفاء.

- هل يمكنني مشاركتكِ في شمعة؟

نظرت إليه بتمعن شــديد، لإبتســامته البريئة لهيئته البســيطة، وقلت: أجل يا آزاد، تعال.

أقترب ووضع شمعة مع شموعي ثم جلس أمامي، دائماً ما كنت أشــبهه بالطفل عندما يكون معي، وها هو كأنه ينتظر مني بعض الحلوى.

- ديانا.

نظر إلى الشموع وأخذ يضم ركبتيه إلى صدره بيديه: كيف حال الشهداء الآن؟!

أغمضـــت عيني فتخيلتهم كيف يعتلون المنصـــة، رفعت رأســي ثم نظرت مطولاً للسماء.
- دعـنـي أخـمـن. الآن هـنـاك مـهـرجـان يـرأســه أبـن ثـنـوة، ينقله بطول الجنة وعرضـها أحمد بكامرته، التي طالما نقلت أجمل الصـور المتكلمـة. قمـت من موضــعي، وقفـت وأنـا أشــير بيـدي للنجوم.
- يفتتح المهرجان الشـاعر علي رشـم، باسـم بغداد والصـفا باسـم البصـرة والمنى، باسم النجف العظيم، باسم ذي قار الحزين. بسم العراق الرحيم.
قـام آزاد ليلتحق بتمثيلي لخيـالي ســـائلاً: من الجمهور يـا ديـانـا؟
- هناك في المقدمة تجلس الملائكة تليها الشــهداء وعراقيون آخرون ...
صفق آزاد بخف يديه، وهو يبكي ثم أحنى برأسه.
- ديانا هناك الوجود، فما نحن هنا؟
- لا أعلم يا آزاد، يخالجني شــعور أن كل شـــيء عدم، حتى الهواء نعيش في كأس نبيذ يرتشـــفه متشـــرد، ليجد نفســـه في عموم الأحياء الفقيرة!
عاد لجلسته ثم قال: هل شاركتي بشيء من كتاباتك؟
- أجل كتبت مقطوعة.

أيـن منـا أنـت أيهـا البـابـا البـابـا البعيـد
ألا يـا أيهـا النـاس أســمعوا منـا صــرخـةً
عــلّـهـا تصـــل إلـى الـرب الـمـجـيـد
وأخبروا حتى اليسوع لا عيد لنا والشبان نائمةً
أخرجوا لي صــفاء وأحمد أخرجوا لي من كل
البيوت على وجع الوطن عينٌ شـــاهـدة..

أمليتها عليه فأستمع إليها بملء أرادته.

- ســتصــبحين شــيئاً كبيراً في المســتقبل يا ديانا، أنا متأكد من هذا.

- ما رأيكِ أن نخلد للنوم، الوقت تأخر.

- حسناً.

أوصلته إلى الباب فتوقف، قائلاً: ديانا.

- أجل.

أخـذ الـهـواء البـارد يـوقـف كـلـيـنـا،كـانـت شــفـتـاه مـمـتـلـئـتـيـن وكـأنـه يريـد قول شــيء، نظر إليّ دفعـة واحـدة كســر ذاك الكبريـاء ســدّ المســامات، أغلق خلفه بـاب العـالم: أحبـك. ثم ذهـب من دون أن يســمع ردًا مني. تجمّـد قلبي وتوقفـت خلايـا دمـاغي عن العمـل، بل توقف الزمن.

" ديسمبر "
الثامن والعشرون

الحانة

كنت قد أتيت مؤخراً لهذا المكان، أعمل به طوال الليل وأذهب لأبي المريض الذي لم يكن يعي ما يحدث حوله، عند الرابعة أو الثالثة فجراً.
كان صخب من يكادون ترك بيوتهم، أطفالهم، ونساءهم، وحتى أرواحهم فهم يدخلون بجسد لا أكثر، ويسكنون هذه الحانة، يعلو مع صوت أم كلثوم، وأحياناً يقوم بعض الوطنيون المحتجون الذين يريدون أن تعلو أصوات الأناشيد الوطنية.
إذا كنت تريد ذلك اذهب للتحرير، واستمع جيداً، حتى أنك تسمع هذا النشيد المقدّس مرمي مع الجثث المسكينة، تتصنعون الوطنية ؟
اذهبوا بعيداً عنا بتصنعكم، واتركوا لنا عفوية كفرنا. قالها وهو بالكاد يفتح عينيه لشدة ثمله، تعلو طاولته العديد من الكتب البالية التي لطالما كنت أوقظه وهو نائم فوقها.
إن ما قاله صحيح، أصحاب الوطنية يبيتون في وسط التحرير والخلاني على جسر السنك وغيرها، في هذا الطقس البارد حيث درجة الحرارة تحت الصفر، هم يتجمدون هناك وهؤلاء لاهين بالنساء والخمر فقط، لسانهم يلهج بالوطن ويسكتونه متى ما دخلوا أحدى زوايا الحانة!
قام رجل ضخم يكاد بطنه أن ينتهي لفمه الكبير المجعد، وأخذ يرفع قميصه عن ذراعه، وأخرج سكيناً من جيبه، ألتقط كأس النبيذ بيده الأخرى، ذهب نحو ذلك الشاب الهزيل المسكين أراد طعنه ولكن سرعان ما جاء الأستاذ رانسو صاحب الحانة، وقال له:

- عـد لمكـانـك يـا سـودي سـأجعـل الحرس يطردونـك هـذه المرة.
- وأنت أبتلع كتبك واسكت...
مهمـا كـانـت فوضـى الحـانـة فهي أشـرف ممـا حـدث في الخـارج، من قتـل وقمع وسـفـك الـدمـاء، بـل أكـاد أمكـث بهـا على طريق العودة للمنزل، وسـمـاع جـاراتي كيف يتحـدثن عن الإرهـاب والجرائم هنـاك. من حينا يأتي الكسـبة أحياناً، إن الفقراء هنا أغنى من بعض رجال الدين، أغنى من كـل السـيـاسـيين بـالكلمـات فقط أغنى، يقتلهم جوع شـاعر قال بهم أنشودة، فصفق كل الحاضرين بكروشهم. لم يكن في الحانة شيء يثير الريبة والقلق سـوى الخان السـفلي، كان يجتمع به عدد من الرجال، يدخلون وكأنهم لصـوص يتسـللون واحداً تلو الآخر، لم يكن أحد يشـك بأمرهم، الجميع لاهٍ بما لديه. أحدهم يبحث في كأسـه عن معشـوقته التي تركتـه، وآخر ينـدب حظـه التعس، هنـاك من فرّ من مصـرع الحيـاة وآخر هارب من زوجته.
في زاوية الحانة المطلّة على الشـارع الممطر، يجلس واضـعاً سـيجارته ينفث الدخان، يأخذ نفسـاً عميقاً ثم يعود للوراء ليتكئ على حافة الكرسـي من الأعلى، يرتدي القميص والبنطال الجينز، يكسـو وجهه شـارب بسـيط خفيف تظهر عليه ملامح المنعزل الهادئ، يبدو عليه إنه بداية الثلاثينات.
- تفضل سيدي.
كـل يوم آخـذ لـه طلبـه المعتـاد، فيقوم بشـكري بحركـة من رأسـه، ورحت اليوم لأفعل المعتاد. وضـعت أمامه مشـروبه، نظرت إليه بتمعن.
- وجهك شاحب، هل أنت مريض ؟
أعتدل بجلسته نظر إليّ وكأني قد تزوجت أباه.
- أجل، داء كره حواء يا آنسة.

لم أكن أسـيطر على تضـاريس وجهي، تمنيت لو أضـربه بتلك الزجاجة على رأسـه، لا يعلم من مثله كيف نعاني للعيش في مجتمعهم الذكوري، نحن نموت شـيئاً فشـيئاً بسـببهم بل ننتظر الموت لينتشـلنا منهم في كل لحظة. وضـعت يدي على الطاولة أغمضـت عيني لثلاث ثوانٍ ثم فتحتهما.

- لم يكن على آدم أن يسـتمع لأمي، عندما قالت كُل من الشـجرة ليأتي الأبله ويردد: حواء هي السبب في كل هذا الدمار! بعد فشله في علاقة مع أحداهن. ألم يسـتطع أباكِ رفض الطلب أو التفاحة؟!

ارتسمت على شفتيه ابتسامة تدل على عقد لسانه، رفع كأسه وأنزل رأسه.

- تمام آنستي الصغيرة.

اسـتدرت وذهبت لأكمل عملي، في طريقي رأيت أثنين من الشـباب الذين كانوا يذهبون للخان وهم يتحدثون عن شـباب يريدون قتلهم في سـاحة الخلاني، يتحدثون في بادئ الأمر عن إنزال مجموعة من النسـاء، ليقمن بإشـعال فوضـى أو تدنيس ذاك المكان، يعتقدون بفكرهم الصـغير التافه إن الجميع يفكر مثلهم، ثم تحدثوا عن اسـتدراج شاب وقتله من دون علم أحد، ولا حتى السلطات. عدت للوراء وأنا خائفة مما سـيفعلون، بل ومرتعبة. ركضـت نحو الأسـتاذ رانسـو لم أجده، فصرت أتخبط في نفسي قائلة:

- ماذا سيفعلان ولمن؟!

" أملي برؤياك "
أجزاء من الثانية

لم أكن بوعيّ ولا أريد الرجوع لنفسي، تركتني مع آزاد عند الباب، إنها المرة الأولى التي ينطقها بلسانه ولكنه نطقها من عينيه آلاف المرات، رحت أجوب أرجاء الغرفة وحرارتي تكاد تقتلني من شدة الفرح، ليتني أمسكت به لأقول وأنا أيضاً، ليتني ما تركته يذهب، لم يكن بإمكاني استجماع نفسي، وددت لو اقرأه ككتاب وأتصدق على الباقين كهوامش، لماذا لم أخبره إني أحتاج جرعة من عينيه لكي أعيش في ظلام الحياة المروّع، لكي أتنفس مثلاً. رحت أعيد ما قاله لي، وأصوره كمشهد تغلغل في أعماقي.

- آزاد

كيف خرجت تلك الحروف من فمي ؟! كيف استطعت إخبارها ؟ ما هذه الرجفة التي تجتاحني، والفرحة التي أنا بها ! ولكن ما جوابها لماذا لم أنتظرها لأسمع ردّها ؟ وقفتي أمام الشغب لا تساوي شيئاً أمامها.

- يا بُني أرتدي سترتك الطقس بارد.

قالتها عجوز عراقية كانت واقفة أمام دارها، ربما حسبتني أحد أولادها أو رأت إن من الجنون أن يمشي المرء بقميص من دون شيء آخر يقيه من هذا البرد الذي لا أشعر به البتة.

- خالتي لقد أخذت دفئي من فاتنتي.

- حفظك الله لها هي محظوظة.

- بل أنا المحظوظ الذي يحبه ذاك الرب إذا قالت إنها تحبني، أدعو لي يا أمي فهي تقول إن الكبار خيرة الدنيا بفضلهم يمن الله علينا.

رفعت كلتا يديها إلى السماء، وأحسست أنهما اجتازتا السماوات السبع، تمتمت ببعض الكلمات ثم ابتسمت لي فرحاً، كنت أتمنى أن يكون جميع من في العالم بسعادتي هذه. فتحت باب المنزل وأنا أتخيل عينيها ووجنتيها الحمراوين، رحت أرتمي فوق سريري وأراها أمامي تتشكل في قلبي، هذه أجمل ليلة على الإطلاق.

- ديانا

إنها الواحدة، لا أستطيع النوم هناك أشياء تترتب في ذهني أود قولها له الآن،

لا أحتمل حتى الصباح. أمسكت الهاتف ورحت أُريد الإتصال به، ولكن شيئاً يقف أمامي ككل مرة. كتبت على صفحتي الشخصية. (قد يمر اليوم بأربع وعشرين ساعة، إلا إنه في الحقيقة يمر ببضع ثوانٍ من عينيك، كأنهما نهاية الكون والنجوم الجميلة تحت ظلمة الليل، أو ربما كما يدّعي الناس الحياة.)

رأيت المشاهدات وكعادته شاهدها قبل الجميع، وكأن هناك إشارة ربانية وصلت إليه ليرى ما بداخلي بخمس وعشرين ثانية.

- آزاد

فتاتي العنيدة ذات الكبرياء و .. طرق الباب! ومن ؟! هي !! يا لي من عاشق متسرع، ذهبت لأفتح الباب. فجأة وضع أحدهم يديه على فمي ولم أرَ ساعتها سوى ظلام الليل!

- ديانا

ســأذهب إليه غداً صــباحاً وأقول له كل شــيء، أتمنى أن أجد كلمة أكبر من أحبك حتى الصــباح، أتمنى أن لا أضــيع أمامه مرة أخرى، وأتمالك نفســي، أتمنى لو أنام فها هي الثالثة فجراً! ولا زال ذاك الملتحي الأســمر بشــعره الطويل وعينيه الســوداويتين يعتلي روحي.

في ذمة بيانكا

كنت خائفة مما قد يحدث اليوم، رأيت ذاك الشـاب يجلس في مكانه كعادته، والكاتب الثمل وغيرهم، إنها الثانية عشر ولم يحدث شيء الحمد للرب، أرجوك أيها اليسـوع أتمنى أن لا يحصـل شـيء. وبالفعل لم يحدث شـيء حتى الرابعة فجراً. أردت الذهاب للبيت وعندما خرجت تذكرت أني قد نسـيت ذلك الكاتب نائماً فعدت لأوقظه وليتني لم أعد، كان هناك صوت ضرب ينخر جسم أحدهم فيئن وكأنه لا يستطيع الصراخ. أخذتني قدماي للخان وصـرت أنظر خلسـة خشـية أن يروني، كانا شـابين وثالثهم مرمي على الأرض مقيد اليدين، ربط حول فمه شـيء.

- سـأقتلك يا آزاد لقد حذرتك كثيراً من عدم تقربك لها، سـأقتلك ولا أسـمح لك بالتفكير بها، ولو على بعد آلاف المترات.

كان الشاب قد خائر القوى حتى إنه قد أغمي عليه.

- ستبقى معه، يجب أن أذهب لديّ عمل، سأعود بعد نصف ساعة وأقتله.

هذا ما قاله ذلك الرجل الذي كان يضـربه. ذهب من الباب الخلفي وترك معه ذاك الثمل وبقيّ هذا المسـكين مقيداً على الأرض.

- ما شـأنكِ يا بيانكا، هيا عليكِ الذهاب أباكِ ينتظر، لقد تعبتِ اليوم.

تقدمت خطوتين ثم وقفت أُفكر لماذا يريد قتله ؟ لا أسـتطيع تركه كيف سـأقابل ضـميري عندما يموت ماذا أفعل ؟ هل أخبر الشـرطة ولكن هم رجال أمن ! ماذا أفعل ماذا ؟

هل جميع النسـاء يثرثرن هكذا ؟ كان يقوم بتنشـيف يديه ثم رمقني بنظرة وكأنه يقول ما خطبكِ ؟

- هل تساعد آدم لو طلب منك ؟

تكلمت معه بحذر في بادئ الأمر، رفع رأسه بتفاخر.
- لو طلبت حواء لما لا، هل هناك ما يشغلكِ؟
- أحدهم بالأسفل سيموت بعد نصف ساعة.
- لا ، لا أتدخل بهذه الأمور.
- الرجل سيموت أيها الجبان!
- لا يعنيني ..
أمسكته من يده وكانت أول مرة أمسك أحدهم، رغم أني أعمل في حانة.
-أرجوك لنحاول إنقاذه، سآخذه لبيتي لا عليك فقط لنرفعه. أخذ ينظر لي بتمعن وكأنه لا يريد رد طلب لي.
- هيا ليس لدينا وقت أسرعي أين هو؟
- شكراً لك، تعال معي.
لم أكن أنوي فعل ما طلبته ولكن لها نظرة موقعة ودمعتها إشد إيقاعاً، شعرها البني، شفتيها الناعمتين كأي أنثى مغرية، ولكن لا تحاول لفت انتباه أحدهم لها، مسكتها ليدي ثم تركها وكأنها لم تلمس بحياتها رجلاً، ولكن كيف وهي تعمل في حانة يكسوها الرجال أكثر مما تكسو النجوم السماء!؟ مشيت خلفها إلى أن وصلنا للمخزن السفلي، كنت أراه أول مرة رأيت أحدهم مربوطاً ومرمياً، والآخر نائم على طاولته.
- هيا أسرعِ ما بك تحدق، هل ترى رجالاً أول مرة ؟!
رحت أحاول فك وثاقه، حملناه معاً ثم وضعناه في سيارته، وذهبنا لمنزلي. أنزله ووضعه داخل منزلي، حيث كان أبي نائماً كعادته.
- إلى هنا ينتهي عملي أيتها الفاتنة، ليس لي دخل لم أرَ ولم أسمع.
- أسمي بيانكا لا الفاتنة أيها الجبان وشكراً لك.
- ستوقع بكِ هذه الشجاعة ذات يوم يا فاتنتي.

- تستطيع أن تذهب، أما مواعظك فاحتفظ بها لنفسك، وإياك أن تشي بما فعلناه..

- وما الذي يدفعني لذلك وأنا حتى لم أحصل على مقابل ؟!

دنوت منه أكثر: لأجل ذاك الصليب الذي تحمله سأقول لك شيئاً، لا يولد الناس بالفطرة سيئين، بداخلك شيء من الطيبة فلا تبخس حق ذلك. تركته يخرج، أقفلت الباب وكاد قلبي أن يقفز أمامه! لم يخفق قلبي هكذا من قبل، رحت انظر لذاك المسكين كانت الساعة الخامسة فجراً.

- لماذا عدت ؟

- خرج جيرانكم، وخفت أن أسبب لكِ المشاكل.

- آه، مصيبة أخرى تفضل.

أدخلته لجانب ذاك الشاب، قمت بجلب الماء وقطعة قماش لوضع كمادات، وخفض حرارته، كان يرتعش ولم يكف عن قول ديانا حتى أخذني النعاس ونمت على الأريكة، بينما كان ذاك الشاب ينام على الأرض.

- أيمن

لم أكن نائماً مثلت ذلك إلى أن نامت، وصرت أنظر لها حتى وهي نائمة، شجاعتها تسيطر عليها كيف تنام وسط شابين أم هي معتادة على ذلك ؟ ولكن شكلها لا يدل على تفكيرك الرخيص يا أيمن. قامت بإنقاذ الشاب حتى من دون أن تعرف أسمه، شجاعة أم غباء هذا ؟

- بيانكا

الساعة الواحدة ظهراً استيقظت مذعورة، لقد نسيت دواء أبي، قمت لأضع له طعاماً يأكله ثم يأخذ دواءه.

- هل استيقظت ؟

ورث سيجارته: لم أنم لست معتاداً على النوم فوق الأرض. قالها وهو ينظر لأرجاء الغرفة.

- متعجرف.

لم يكن في البيت طعام فلم أتسوق بعد، وضعتُ شرائح البطاطس والخبز، دخلت لغرفة أبي أعطيته الطعام مسحت على رأسه الأبيض وابتسمت له، هو الشيء الوحيد الذي يجعلني أبتسم في هذه الحياة.

- هل بإمكانكِ أن تطعميني شيئاً؟ أنا جائع.

- ماذا تفعل هنا سيسمعك أبي الآن؟! ليس لدينا ما يناسب معدتك المليئة بتفاهة الأغنياء.

- بالمناسبة أسمي أيمن.

نظرت إليه بما يدل وما يعنيني: وما شأني بأسمك؟!

خرج ذاك الشاب وسقط عند الباب، أسرعنا لحمله ثم وضعه على السرير: يجب أن أذهب إليها.

- حرارتك مرتفعة وهناك لكمات في جسدك، هل يمكنك أن تهدأ من فضلك؟

كان أيمن ينظر لي بتساؤل وهو يتحدث معه: من أنتم؟

- آزاد

بعد أن فتحت الباب أحسست بأحدهم يضع شيئاً على فمي، ولم أشعر بشيء بعدها سوى يديّ المربوطتين، والكيس الأسود، وصوت سنان وهو يضربني حتى وقعت على الأرض، أحسست بأن أحدهم يرفعني كانا رجل وامرأة.

- أين أنا؟

صرت أرفع نفسي وكأن أحدهم يمسك بي ويشدني، بذلت كل ما لديّ إلى أن وصــلت إلى الباب. راحت هذه الفتاة تروي لي ما حدث، وكيف قاما بإنقاذي من يد سنان.
- شـــكراً لكما، ولكن يجب أن أذهب أظن أنها تنتظرني ولقد انتظرت هذا اليوم بفارغِ التعذيب.
- تمهل، هذا الرجل ســيعود لقتلك لقد كان ينوي ذلك، أبقى هذا اليوم وأذهب غداً عندما تستجمع قوتك.
لم أكن أسـتطيع أن أرفض طلبها، فكيف لي أن أمشـي وأنا في هذه الحال! حلّ المساء، قالت أنها يجب أن تذهب لعملها وقال الشاب أنه سيوصلها.
- أذا احتجت لشيء قم وأفعل ما تشاء، لقد أخبرت أبي بكل شيء ولا يوجد سواكما في البيت، ولكن أرجوك لا تخرِج بهذه الحال.
أستوقف نظري في هذه الساعة كتاب ديوان مظفر الذي كان بجانب السرير ورحت أُحاول إلتقاطه.
- هل تريده ؟
- بيانكا
أخذت الديوان وأعطيته إياه، لم أتوقع ما ســيفعل ولكنه قام بتقبيل الكتاب، وضمه لصدره ثم بكى فوقه!
- لماذا تبكي ؟
- هي تحب هذا الشاعر جداً، لقد اشتقت إليها.
دنا منه أيمن ثم قال له: أعدك ســأوصــلك غداً مســاءً لبيتك ثم تذهب لها. تركته في هذه الحال ثم خرجنا معاً للعودة إلى الحانة، لم أنم جيداً فنمت في السـيارة عندما اسـتيقظت وجدت السـيارة واقفة على ركن، نظرت بذعر لأيمن: أين نحن ؟!

- كنتِ تنامين بعمق وخفت أن أُوقظكِ، فقمت بإيقاف السيارة.
- شكراً لك، سأتأخر هل يمكنك أن تسرع.
- لماذا تعمل فتاة مثلكِ في الحانة؟
كانت الدموع على وشك أن تسقط من عينيّ، ورحت أتذكر كل ما حصل لي في الماضي، وكأن شاحنة مرت فوق روحي.
- ليس لك شأن بهذا.
عندما وصلنا نزلت من سيارته مسرعة، ودخلت للحمام وبدأت بالبكاء. يرتاح الأنسان عندما يبكي، حين يُفرغ ذاك الإختناق عن طريق عينيه، يريد أن ينهار فجأة بكل راحة، يريد الإنفجار بدون شظايا كي لا يرى من حوله الضعف المبني فوقه حصن القوة الهش. وضعت مكياجي من جديد وصففت تسريحتي، ثم عدت للموقف تذكرت أبي فابتسم داخلي، وجاءتني قوة من حيث لا احتسب
- ديانا
أين هو يا ترى؟ لماذا اختفى من دون سابق إنذار، كيف يتركني بحيرتي؟ لقد سألت عنه العم بطرس وقال إنه لم يره، اتصلت به آلاف المرات ومن غير فائدة، أين أنت يا آزاد؟
- بيانكا
عدت للمنزل بعد أن استأذنت الأستاذ رانسو، ولم أرَ ذاك الخبيث ليلتها ولا أيمن! عدت في الحادية عشر، وجدته نائماً والكتاب لازال بين ذراعيه، كان يمسك به وكأنه شيء ثمين، حتى إني أشفقت على أن أسحبه من يديه فتركته على حاله. في صباح اليوم التالي استيقظت لأجده كما هو، رحت أحضّر طعام الفطور. مرَّ زمن لم أنم به هكذا، الشكر للرب على كل شيء.

- صــباح الخير، يجب أن أذهب لقد أثقلت عليكِ يا آنســة، عليّ أن أعود للمنزل ولحبيبتي، كمـا إني تركـت السـاحـة واشـتقـت لكليهمـا.
- حسنًا، كما تشاء.
طُرق الباب بخفة: سـأفتح هل يمكنك العودة للغرفة. فتحت الباب وإذ به أيمن كان متكئاً على الباب:
- متى عدتِ للمنزل لقد بحثتُ عنكِ ليلة الأمس؟
سـحبته من يده خشـية أن يراه الجيران: هل جننت يا أيمن كيف تأتي بوضـح النهـار؟ بصـفتـك من؟! خرج آزاد وهو يتجـه نحو أيمن قـائلاً: هـل هـذا أنـت؟ هـل يمكنكمـا أن توصـلاني وأكون ممتناً لمعروفكمـا.
- ولكن أخشى أن يصل إليك ذاك الحقير مرة أخرى.
- لا يعنيني يـا أخي أريد فقط الـذهـاب لمنزلي، أرى ديـانـا وبعدهـا ليحدث ما يحدث.
نفخ أيمن دخان سيجارته نظر إليّ: ما قولكِ؟
- دعنا نوصله لحبيبته.
قمت بأخراجهما من الباب الخلفي، لحسـن الحظ أيمن قام بوضـع سـيارته على مسـافة ليسـت بالقريبة عن المنزل. عندما وصـلنا للبيت أدخلنا آزاد إلى الصـالـة، ارتفعت حرارته فرحت أعمل له كمادات، رنّ هاتف أيمن. بدت على ملامحه القلق والإضطراب وهو يقول:
- في أي مستشفى أنتم؟
ذهـب أيمن ثم عـاد ليقول: انتظريني ريثمـا أعود وإيـاك أن تخـافي سـآتي لأخـذكِ. حركـت رأسـي بـالموافقـة، بعـد ذهـاب أيمن بعشـر دقـائق، طرق أحدهم باب آزاد الذي كان ينام على الأريكة، لم أود فتح الباب ولكن نظرت من النافذة وإذا بها فتاة،

فتحت نظرت بنظرات غريبة وكأنها تشـمئز من شــيء. نظرت لآزاد وجدته نائماً، استدارت من دون أي كلمة ثم ذهبت.

- ديانا

لم أتمالك نفسي عندما رأيت تلك الفتاة في منزله،

أخذت التفاصــيل تذهب وتجيء في ذهني، كنت أموت من شـــدة خوفي عليه، وهو لا أعلم ماذا يفعل مع تلك ؟!

لماذا فعلت بنفسي هذا ؟ وكيف أوقعت بها كيف صدقت عينيه ؟ لِمَ كذب وهو ينظر داخل عينيّ! هل كنت لعبة يتســلى بها طول الوقت ؟ ام كنت فريســة أراد أن يوقع بها ؟! كنت مصــابة بالخذلان لا أعلم أين ســتأخذني قدماي، فقط أريد الهرب من كل شــيء حتى من نفســي. غفوت بعيون مفتوحة في شــوارع عزلتي، تدلّت أمامي أرجوحتي القديمة، حبيبتي ألم تكوني قد تحطمتِ ؟ كيف جئتِ ؟! وأخيراً شــيء من فتاتي، أين كنتِ أفنيت زهور اللحظات في حقل التيه، آه كم كبرتِ وأزداد صريرك. لالا،

لا تخشــي فلم يعد يزعجني كنت غبية جداً عندما قلت لكِ لاشــيء يزعجني ســوى صــريرك الدائم، لم أكن أعلم أن في الحياة ما هو مقرف، وإنها تدنست من شدة البشر ولا شيء مقدّس سواكِ. صدقيني سأعلنه كأجمل موســيقى رتبتني بعد تناثري في أزقة روحي، في تمام ضــياعي، صــغيرتي دعيني أســمعه كمتشــرد يتغنى بأيام مدينته، أو كراهب ينعزل داخل كنيســته، كمســلم يرتل ما أنزل عليه ربه، كأول عاشــق يختلس النظرات الأولى فأغلق عينيّ عن كونهم، لأغوص بعالمكِ فأرى طفلاً يتأرجح بين أعماق الطفولة، وامرأة مســنة تحمل بداخل ســلّتها كســرات التعب ونظرات الحب في عيون عاشقين،

لا ألحق بهما بل أسترق النظر للبدايات فقط، ثم أقوم لأستلقي فوق الخيال فأرى السماء تداعبني هي وغيومها، وترسم لي ألأحاجي، وإذا بالأشجار تتراقص مع الرياح ويعلو صوت قهقهات أغاني المراهقين، فأبتسم معهم بلا وعي وأدراك، وأغمض عيني ليوقظني قائلاً : هلّا تتنحي من فضلكِ، الأقذار من حولك! عفواً سيدي عامل النظافة، لقد شردت بشيء نظيف!

- ازاد

كيف كانت تعابير وجهها يا بيانكا ؟ إنها لا تجيب على هاتفها الشخصي! إلتقطت سترتي ورحت أركض خلفها، ذهبت إلى بيتهم وتوقفت انظر للنافذة ولكن من دون فائدة. ذهبت للعم بطرس فلم أجدها، بقيت أجوب في أرجاء المدينة أبحث عن ملهمتي ولكني عدت للبيت فارغ الوفاض!

- ماذا تفعلين يا بيانكا ؟

- سأسجل رقمها واتصل عسى أن تجيب عليّ، الجهاز مغلق!

- لقد ظنت أنكِ ..آه ديانا آه.

- ديانا

لم اعد للبيت وذهبت لخالتي مريم، كنت بالكاد أجر النفس، أخفيت عنها ولكنها فهمت حالتي بدون أن أنطق. جاء العم بطرس حينها، بعد ان تكلم معي قال: إن آزاد جاء يسأل عني.

- عمي بطرس هل يمكنك عدم ذكر أسمه أمامي.

عمي بطرس لا يحب الضغط على أحد، بل يتركه ويخبره متى ما شاء.

- حسنًا يا أبنتي، انظري.

- لست في مزاج جيد.

- حسنًا سأقول لك شيئاً من مضمونه، لقد أعتقد احدهم إن المسيحين ليسوا جيدين فقط لأنه كان يرى أفعال بعض المنسوبين إليهم تجاه المسلمين، حيث قاموا بقتل (هيباتيا) بأسم المسيح بل أحرقوها، ولم يبقَ حتى رمادها بعد إتهامها بممارسة السحر والإلحاد، والتسبب في اضطرابات دينية.

كان عمي بطرس يحاول التكلم في أيّ شيء، لإخراجي من حالتي المزرية.

نظرت للعم بطرس وقلت بغضب شديد:

- ربما أحرقوا هيباتيا عارية وهي آلهة فوق وثنيتهم، ولكن الفضيحة لهم أبناء الرب.

- وأنتِ يا ديانا هل ستسمحين لأحد بحرقكِ؟ لازلتِ صغيرة يا أبنتي يجب أن تلعبي، مشطي شعركِ أو اتركيه يتغازل بوجنتيكِ.

نظر للسقف ثم أكمل: لازالت الحياة كبيرة لا تضيق بهذه السهولة.

- أخشى أني قد أخطأت..

- أعطي لنفسكِ فرصة أخرى حتى لو أخطأتِ، فهي تستحق لأجل من يحبونك

يا ديانا.

كانت ابتسامة عمي بطرس وكلماته دواء لدائي، هناك ناس تشعر إن الله قد خلقهم خصيصاً لأوجاعك ولجروحك التي لا تلتئم. ابتسم بوجهه المرسوم عليه آثار الحزن على العم محسن، ومرارة هذه الأيام.

هممت بالنهوض للذهاب للبيت عادة ما يكون نهار الشتاء قصيراً، عندما وصلت إلى البيت لحسن الحظ كان أبي في مناوبته لا أريده أن يرى الحزن بادياً عليّ، هو يصارع البرد القارص مع بندقيته التي لطالما مُت غيرة

منها، لأجلي هل يمكن أن أدعه يراني هكذا بسبب شيء تافه! ذهبت لغرفتي لأستريح قليلاً:
- تفضلي يا أمي الباب مفتوح.
- عزيزتي هناك فتاة تريدكِ عند الباب.
- من ؟!
- لم أرها من قبل.
كانت علامات الاستغراب بادية على أمي، من هذه التي تأتي للبيت في هذه الساعة ولا أعرفها! ذهبت لكي أراها وفوجئت إنها نفس التي كانت في بيت آزاد،
نظرت إليها بتعصب شديد رافعة حاجبيّ دلالة على دهشتي.
- هل تستقبلون ضيوفكم هكذا ؟
- ماذا تريدين ؟
- هل يمكن أن نتحدث في الداخل يا ديانا ؟
- من أين لكِ أن تعرفي أسمي، هل أخبرك آزاد به ؟
قلتها باستهزاء شديد.
- ليس لديّ وقت يا ديانا أريد أن أقول شيئاً.
كانت تصرُّ بشكل لا يشير على أنها ستكذب، وفي الواقع كنت أُريد سماع ما تقول بشدة.
- تفضلي ؟
- وأنا هل ستتركوني أتجمد ؟
من هذا! شاب عشريني وسيم كان مع الفتاة مما جعلني في حيرة من أمري.
أخذتهم لغرفتي ثم قلت لها:
- أسمعكِ ماذا هناك ؟

أخذت تتجول في الغرفة ذهبت ناحية النافذة، نظرت إلى السماء بشعرها الأشقر وعينيها الخضراء، جسمها النحيل، بنطالها والقميص البسيطان، كل شيء فيها لا يدل على إنها كما فكرت بها عند الصباح، كانت نار الغيرة والغضب تتقد بداخلي بل أعمتني.

- ديانا لقد سمعت هذا الإسم من شاب كانت درجة حرارته مرتفعة وهو على وشك الموت.

إلتفتت إليّ ثم أكملت: رأيتكِ عندما قبّلَ ديوان مظفر وكأنه يقبّل جبينك ثم قام باحتضانه. أنتِ يا ديانا تعيشين وسط عائلة جميلة، أمكِ تبدو لطيفة وهناك رجلٌ يحبكِ حقًا. كان ذاك الشاب ينظر إليها كما أفعل أنا بالضبط. أشاحت بناظريها نحو السماء من النافذة:

- أمي تركت أبي لأنه فقير، كان يحبها ولكنها ذهبت وتزوجت بأحدهم، مرض أبي بسببها لم أشأ أن أتركه هو كل ما أملك، هربنا من كركوك حتى لا يرى أبي وجه أمي، وفي الحقيقة لا أرغب برؤيتها أنا أيضاً. إحتجت إلى عمل لأعين أبي، وأوفر له العلاج وأجار منزلنا، وبالصدفة صرت أعمل في حانة. كان أصعب قرار أتخذه في حياتي، لكن ربما وقف معي المسيح واستجاب الرب لدعائي عندما كان الأستاذ رانسو هو صاحب المكان، فقام بإعطائي منزل.

ابتسمت نظرت إليّ ثم أكملت:

- أجل هو صغير وقديم، لكنه يفي بالغرض. كنت أعمل بحذر خشية من الجميع حتى تعلمت العيش بحذر.

أمسكت يدي دمعت عيناها لتقول: أرجوكِ يا ديانا آزاد يحبكِ لا تتركيه، هو فقير أجل لكنه يملك قلبًا يعشقكِ به. سحبت يديها ثم قالت: هيا يا أيمن يجب أن نذهب.

- توقفي ومن الذي وضعه بهذه الحال ؟
- شاب حقير يدعى سنان على ما أعتقد.
كنت مصدومة من كل ما سمعت، بل كرهت نفسي كيف استطعت أن أظلمه! هل سيسامحني ؟! أمسكت الهاتف لأتصل به ولكن ماذا عساي أن أقول!
- أنا أعتذر يا بيانكا إذا كنت قد أزعجتكِ أو أذيتكِ بكلمة.
- لا يا أيمن هذا ما يراه الجميع، الكل ينظر لخارج الإنسان ويحكم، لا يتغلغلون بداخل الكتاب ويقيمونه من المقدمة، وأحياناً من الغلاف! فقط أنقذ نفسك وتوقف عن القدوم للحانة، أنظر لمستقبلك أبداً بتحقيق أحلامك، أرسم أهدافاً ومهما كان الماضي لا تدعه يأخذ ثانية من حاضرك.
- سأترك الحانة ولكن بشرط.
نظرتُ إليه وكانت برودة الجو شديدة، لكني أحب المشي تحت سماء بغداد ليلاً، أخذت نفساً: وما هو شرطك ؟
- أن تعملي معي في الشركة.
لم أكن أصدق ما يقول حتى أكمل:
- لدينا شركة صغيرة نحتاج فيها لموظفين، هل يمكنكِ العمل معنا يا آنسة، وسأحرص على أن يكون راتبكِ كافياً، وإذا كنتِ مجدة ستحصلين على علاوة.
من دون شعور رحت أحتضنه وكانت دموعي تعبر عن شكري وإمتناني، لم أكن في وعيي أبداً أحسست أن الرب انقذني من جديد، بعدها أخذت أبعد يديّ عنه معتذرة عن ردّة فعلي.
- لا عليكِ هيا أذهبي، غداً في الثامنة صباحاً سآتي لأخذكِ معي.

- ديانا

حسناً سأتصل، ولكنها الواحدة يا ديانا! لم أعد أتحمل اشتقت إليه كثيراً. اتصلت به وأنا خائفة مما سيقوله لي، ومعه حق كيفما يوبخني. عندما رفع سماعة الهاتف، كنت صامتة كما لو أنه أمامي.

- أين كنتِ طوال اليوم؟ لقد بحثت عنك كثيراً يا ديانا.

- أحبك يا آزاد.

- وأنا أعشقكِ يا ديانا.

- آسفة على حماقتي.

- لا، لا عليكِ يجب أن أراكِ غداً اشتقت إليكِ.

- وأنا أيضاً اشتقت كثيراً، سآتي غداً للبيت وأراك.

- أنا الآن في ساحة الخلاني.

- لو كنت في جهنم سآتي لك غداً.

أقفلت الهاتف بعد أن عددت أنفاسه الأخيرة لأجمعها فأنام عليها، ثم رحت في نومي وأنا أبتسم، آه لين !! نظرت جيداً وإذا بها قد كتبت مئات المسجات، بعثت لها برسالة ثم خلدت للنوم.

الخلاني ودمار روحي

بعد أن انتهيت من محادثة ديانا، رحت أتمشى تحت السماء وصوتها يتردد كموسيقى داخل أذني، نسيت البرد راح عن بالي إني لست بداخل الخيمة كباقي المتظاهرين، رحت أتنفس بهدوء أحوم حول نفسي، لا أعلم ماذا سأفعل وصلتني رسالة بعد دقائق. (هل يمكنك أن تكون حذراً لأجلي الجو بارد، ولا تكون عرضة لسنان أرجوك لا أتحمّل أن يحدث لك شيء) عندما رأيت حالها أنصعت لأوامرها كالعادة، دخلت الخيمة أخذت زاوية بعيدة عن الشباب، رحت احتضن الجهاز وبدأت بالنوم، ولكن صوت أطلاق نار في كل مكان.

- ماذا يحصل؟ ماذا هناك؟

- هناك هجوم مسلّح على الساحة يا شباب.

سرعان ما دخل أناس مسلحون، ثم قاموا بتطويق الخيام، قتلوا بعض المعتصمين، وقاموا بأسرنا. عندما خرجنا كان المكان يحترق، رأيتهم يقتلون بكل دم بارد، وضعونا في سيارات متفرقة وقاموا بأخذنا ولم نسمع وقتها شيئاً. ياله من كابوس تمنيت لو أخرج منه وأندسّ كزهرة أمام بيت ديانا، أو ليتني رأيت عينيها آخرمرة، ليتني شبعت منها. كان هناك أحساس يراودني أني لن أعود أبداً. عندما وصلنا توقفت السيارات ثم انزلونا كقطيع خراف، وقاموا برمينا في مكان مظلم.

- هل تريدون وطن؟ ستحصلون هنا عليه، سنريكم الآن.

بدأ عدد منهم بضربنا ونحن مقيدون. أقفل السجان الباب ثم ذهبوا، لازلت أفكر بديانا أخشى أن تأتي للساحة ويصيبها مكروه.

- ديانا

شعور غريب يعتليني ما هذا يا الله؟ حسناً سأذهب وارى آزاد، حتى أصبح بأحسن حال. ارتديت ملابسي ثم قمت بتناول وجبة الفطور مع أمي، لم أخبرها إني ذاهبة للساحة.

- سأذهب لعمي بطرس وأعود من فوري.

كانت المرة الأولى التي أكذب بها على والدتي، ولكن سيطر عليّ حب آزاد. ماذا فعلت بي ؟! أسرعت بالخروج قبل أن يأتي أبي فيوقفني أو يأخرني، كنت في حالة جنونية كدت أن أفضح نفسي، تمنيت لو أني أقول للجميع أني ذاهبة للقاء حبيبي، تمنيت أني لو أخبر العالم عن مدى سعادتي. هنا سنأتي ونجلس انتظرنا أيها المكان الجميل، أشرت بيدي " للمصطبة القديمة" رحت أنفخ الهواء الساخن من فمي في يديّ، وأخفي ابتسامتي في نفس الوقت و.. ما الذي حدث هنا ؟! لِمَ الجميع في هذه الحالة؟ لماذا يبكون ما هذه الحرائق ؟!!

- أبتعدي يا آنسة أرجوكِ ؟

قالها شاب مسرع في التكتك، سيارات الأسعاف نبهتني أني على أرض الواقع، كان الدم في كل مكان.

- آزاد!! أين آزاد يا عم؟ هل رأيت شاباً اسمراً، طويل ملتحي، يدعى آزاد له عينان بريئتان وشعر كثيف!

- يا ابنتي يجب أن تعودي للمنزل، الوضع خطير لقد هجمت في الأمس مجموعة مسلّحة، قتلت البعض وأخذت الباقين وأحرقت الخيام.

كانت الدموع تنهار من عيني الرجل المســن بغزارة، وكأن ولده قد قُتل أو تم ســحبه مع من أُعتقل. لم أعرف ماذا أفعل؟ فقد كنت ألهج بإســمه وأبحث عن صـوته وسـط الزحام الباكي المفجع، أسـأل عنه كل من يخرج أمامي، ولكن لا فائدة. أخرجوا الجثث المحروقة من الداخل، فوقعت على الأرض بعد أن رأيت شاباً محترقاً بالكامل، لا أعلم أين صوتي لم أعد أحس بقدماي، فقط لا أريد أن يكون آزاد داخل أحد الخيم أو هذا الشــاب. كان الألم كافياً ليراه الأعمى ويســمعه الأخرس. رحت ابحث في الخيم علّي أجد ما يرشــدني، ثم قمت بالأتصــال عليه ولكنه لا يجيب. أدخل لخيمة وأخرج من أخرى، وأنا أتصــل حتى كدت أيأس، ولكن كسـر يأسـي صـوت هاتف يرن، اقتربت منه وإذا هو هاتف صـغير كان رقمي يظهر على الشــاشــة مكتوب عليه، وطني! سـلّمت أمري لدموعي في هذه اللحظة، وصـرت أصـرخ بجنون ولكنه لا يسمعني.

- أين أنت يا آزاد، يالله!

جاء مجموعة من الشــباب لإخراجي قائلين: يا أختي أن الوضـع خطر نرجوكِ أن تبتعدي عن الساحة.

- أتوســل إليك يا أخي أريد آزاد، هو شــاب جميل مثلكم، أرجوك يا أخي.

أخذ يبكي بحرقة ثم قال: فداء للوطن جميعنا هنا يا أختي، وأن كان ســيعود فلا بد من ذلك، ولكن لو كان هنا لما ســمح أن ترمي بنفســكِ للتهلكة، هيا أســرعي أرجوكِ صــرت أخرج من الخيمة ولمحت شيئاً، هبطت للأرض وإذا بها سلسلته أخذتها وذهبت. جاءت قوات أخرى وقامت بإقتحام المكان، كان الرمي على الشــعب من قبلهم يدل على أنهم وحوش وليس من بني البشــر. أكثر المعتصـمين السـلميين

كانوا بين الخامسة عشر والخامسة والعشرين، وهناك بعض المسنين لا يحملون في أيدهم سوى أعلام تدل على سلميتهم، وكما قتلوا صفاء ها هم يعيدون ما يفعلون، فلقد عمت الفوضى أرجاء المكان بعد أن دخل البلد في فراغ سياسي، الأحزاب تحرق وتصفي حساباتها، والشعب يموت أمامهم ولا يحركون ساكناً.

آزاد في زنزانة الحب

مضت أيام ونحن هنا، يمارسون علينا أشد أنواع التعذيب، ثم يضعونا في غرف تحوي الكثير من الضوء، يتخذون منا عملاء ومخربين ولا أحد يعلم بأمرنا.

- من منكم يدعى آزاد ؟

- أنا..

- خذوه.

قاموا بوضع الكيس من جديد على رأسي، ثم وضعوني في غرفة. عندما رفعوا الكيس عني علمت أني داخل غرفة تعذيب!

- هل تظن أنك قد تهرب مني ؟

- سنان، هل هذا أنت أيها الجبان، كيف تقوم بفعل هذه النذالة بأبناء شعبك كيف تخون بلدك...؟

- سأريك كيف.

وضع الكهرباء في قدمي، ثم بدأ بصعقي حتى خرج الدم من فمي، أستمر هكذا إلى أن غبت عن الوعي.

- ديانا

- مضت ثلاثة أيام، الخراب مستمر وآزاد ليس له أثر يا لين، ماذا أفعل ؟

- لندعو الله فليس لنا سواه يا حبيبتي.

- لين لا أستطيع العيش من دون آزاد، أقسم إني أموت.

- لا تتحدثي هكذا سيأتي عمي جلال بأخبار عنه غداً أن شاء الله، وسنعلم أين هو ثم نفعل ما بيدِنا، ونترك الباقي لله.

بعد أن ذهبت لين بقيت وحدي أصارع تفكيري والتخيلات التي كانت تراودني، كنت خائفة جداً، بدأت بالصلاة لله أن يعود آزاد، ويهدأ الوضع،

وتســـكن قلوب الأمهات ويكف العراقيون عن البكاء. رنّ الهاتف وكان رقماً غريباً فقمت بالرد بسرعة، عله يكون آزاد أو خبراً عنه.

- من معي ؟

- أنا سنان هل يمكنكِ أن تنزلي قليلاً يا ديانا.

- هل تعلم إني من المحتمل أن أقتلك لو رأيتك أمامي.

- الوضع جاد يا ديانا من فضلكِ تعالي ..

أحســـســـت أن له علاقة بأختفاء آزاد ومن معه، ارتديت ما يقيني من البرد ويغطي ما كشـــف من جســـمي، ثم نزلت إليه، لم أود رؤيته ولكن رحت أقول:

- هو سؤال واحد لا غير، أين آزاد يا سنان ؟

- هل تحبينه لهذا الحد ؟

- أحبه لدرجة أن لا أعيش لي بعده يا سنان.

- حسنًا تعالي معي هذه الليلة، وأعدكِ غداً صباحًا سيخرج.

لم يكن على هيئة بشر بل كان الشيطان بعينه، بصقت بوجهه ثم قلت له بإشـــمئزاز: كيف تربيت على يدي العم محســـن! لو بقيّ آخر يوم من عمري لا أخون آزاد ولو بالتفكير حتى، أيها المريض الجبان.

ابتعدت عنه ثم عدت للبيت وغرفتي، بكيت حتى ســـقطت بأنيني على الأرض، لم أكن أحتمل حتى نظراته لي، ترى ماذا فعل بآزاد هذا الحقير ومن معه ؟ ماذا افعل يا الله كيف أنقذه كيف ؟! كانت ليلة صعبة جداً فمن ناحية أخرى نادت الجوامع في ساحة الحبوبي الناصرية تعلن عن أحتياجها للتوابيت، كارثة قد لحقت بالأمة فلم أســـمع قط مدينة تســـتغيث طلباً لصناديق الموت، شعرت أن عرش الله اهتز من سمائه.كان وضع العراقيين يتمثـل ب(جـادر زلم) فقـدوا أعز مـا يملكون، لا يبكون من أعينهم

بل يحتضـــرون بأشـــكالٍ مختلفة، أمنيتي أن أعرف جرمهم، آها أعتقد أنهم السبب في ثقب الأوزون. وضعت سلسلة آزاد بين يدي ثم رفعتها لعنقي، وقمـت بلبســـهـا. شــعرت بهـدوء يمر قلبي ينثر عليـه أنغـام الزمـان، تنهيدة تتلاعب بي كمدخن يلاعبه الدخان..

- آزاد

الغرفة مظلمة كنت أشـد نفسـي لجسـدي بصـعوبة بالغة، أوشــكت على النهوض لو لم تخني قدماي المقيداتان مع يديّ، أحسست أن المكان ضيق جداً. أخذني التفكير لديانا، ترى ماذا تفعل الآن هل تقرأ كتاباً وتبتسـم تارة وأخـرى تـغضـــب؟ أم تـعـزف عـلـى الـعـود وتـغـمـض عـيـنـيـهـا؟ أم تفكر بي ؟! هل تصـلي لله من أجلي هل تشـكره في خلواتها كما شـكرته أنا عليها لأول مرة بعد موت أمي! ثم هل ستسامحني إذ مت هنا أيها الرب؟ أمي ؟!! البياض ناصع على وجهها الخالي من التجاعيد.

- ولدي الحبيب كيف حالك؟

اقتربت مني ولامســـت خدي بيديها، لم اســتطع أن أحرك ســـاكنًا، لقد رأيت أمي بعد كل تلك السنوات.

- اشتقت اليكِ كثيراً يا أمي.

وضـعت يدها على شـعري، ثم قالت: لا تخف وإياك أن تبكي يا صـغيري، أنـت بحمايـة الله.أيقظني من حلمي صـــوت الســـجان وهو يفتح البـاب، ثم قـام بســـحبي وكأنـه يريد بي إلى المـذبحـة، لم أتمكن من رؤيـة وجهـه، حيـث قـام بوضــعي في ذات الغرفـة. بقيـت جـالســـاً فيهـا لوحـدي أقوم بمراجعة تفاصـــيل أمي، أتحســـس لمســـتها لي واتذكر كيف قالت أني بحمايـة الله. أدركت حينها إن الله قد عطف عليّ عندما أرســـل لي

والدتي، إعتراني خجل مريب حتى أقشـــعر جســـمي، تذكرت ديانا عندما قالت لي ببسمة بادية على محياها:

- عد إلى الله متى ما شـــئت، تجده بإنتظارك بل ويســـتقبلك أحســـن استقبال، لا يدعك تحني رأسك عندما تحادثه بل تجد هناك شيء يجذبك إليه.

- آه ديانا.

كـانـت الأرض بـاردة وجســـمي يرتعش، داخلي فـارغ من أي طعـام، ألم الكهرباء لازال يدور بأعصـابي، كنت اتأمل صـوتها عندما قالت أحبك، كما يســـتمع المؤمن لصـــوت القرآن بهدوء عند الرابعة عصـــراً والجو غائم. كإنما وقع ربيع على خريف قلبي، ربما عوضـــني الله عن أمي بضـــحكتها. مازلت انســـج فكري بها حتى دخل ســـنان الغرفة التي لو لم يكن ذكر ديانا بها لغدت بالنسبة لي سجنًا حقيقياً.

- هل عدت ؟

- لا أتركك أبداً حتى أنفيك من على هذه الأرض.

كان يمسك بياقتي ويضع انفاسه اللعينة في وجهي، فقلت له:

- لو كان بيدك شيء يا سنان لأطلت من عمرك ساعة فوق حياتك.

- لا تتحداني يا آزاد.

نظرت بـداخـل عينيـه: ولكني فزت بحبها ولا أبـالي بشـــيء بعـد هـذا. تطـاير الشـــرر من عينيـه كقنبلـة ذريـة، وضـــع يـده على ســـلاحـه، لقد كنت أحترق حبًا لأني لم أرد أن يضـــع أحدهم عينيه على جوهرتي، تمنيت أن يكون ذلك السلاح بيدي أو لديه الطاقة الكافية لأفرغ غضبي به. ولكن ســـرعان ما جاء أحدهم ليقول: هيا هناك أمر بالإفراج عن الجميع، لأن عدداً من الثوار قد تفاوض مع الشـــغب وقاموا بالتصـــعيد الســـلمي.

لم ينطق سنان بحرف وقام هذا الرجل بفك وثاقي، وقال لي:
- أذهب أنت حر.
وضعني أمام الباب الرئيسية ثم تركني، لم أصدق ما سمعت ولكني تظاهرت بالثبات، استجمعت نفسي من هول التعذيب وخرجت من ذاك القفص كطائر يريد العودة لعشه.
بعد أن خرجت اخذتني قدماي بعد السقوط ألف مرة مني إليها، كنت ذاهب لشارعها وكلي ممتلئ بها، لم أعد ذاك الضعيف بل استجمعت شوقي وحنيني وكل مابي من شعور، لا يهمني أكان الوقت ليلاً أم نهاراً، ولم أهتم لوضع النجوم هذه المرة ولا حتى لوجود القمر، كتائهٍ سيجد ضآلته. لم يتبقَ شيء ها هي هناك تسكن زهرتي، سأصل لمعشوقتي، سأقول لها إني وجدت الله أخيراً، سأقول لها كيف أحببتها سا..
اعترضت طريقي سيارة سوداء، ونزل منها أربع رجال ملثمين كان من بينهم سنان.
- هل كنت ستذهب اليها ؟
القذر!: أجل لو لا بعض الذي يدور بالهواء كالذباب.
- وايضاً تتصنع البطولة.
- أتصنع ؟ هل تراني مع ثلاث رجال ملثمين وأسلحة، أم ترى سيارتي ؟
- سأقتلك يا آزاد ولن تلمس ديانا، أقتلك وأقتل قطيعاً مثلك.
- ولكن ستقتلك ديانا بحبي لها، ستراني في جميع الوجوه حتى وجهك القذر. حسناً وأنا سأقتلك بهذا الخبر، هل تعلم ماذا قالت لي في الليلة التي أتيت أنت ومن معك، قالت لي أحبك، هل تعلم ما هذا أنا أول من احتل قلعة قلبها أنا يا سنان لا أنت.

اخرج سـنان سـلاحه ونظر اليه، كما لو إني دسـست خنجراً بقلبه، سحب الزناد واطلق النار عليّ قائلاً:

- هذه لتطاول لسانك.

- ضرب أخرى وقال، هذه لأنك تريد وطناً أيها الأحمق.

وقعت على الأرض من فوري، كان كل شـيء يدور من حولي إلا قلبي كان سـاكناً، اسـتلقيت على الأرض كأني في نزهة، صـار أمامي خيال ديانا في فسـتان عرس أبيض وهي تقول، حبيبي لقد اتيت اليك. جاء اثنان من الرجال على صوت الرصاص، بعد أن هرب سـنان ومن معه قالوا إنهم سـينقلوني للمشفى، رفضت وطلبت أن يتصلوا بالرقم الذي أمليه عليهم، اتصـلت بها وبعد ثوانٍ أجابتني نعم، إنها هي أنفاسـها ودموع صـوتها، أجل هي:

- آه كم اشتقت اليكِ.

- صاحت بذعر: آزاد أين أنت ؟

- أنا في رأس الشارع هل تأتين ؟

- ديانا

كنت جالسـة في نهاية الغرفة، في زاوية مظلمة أناجي الله علّه يريح قلبي، أو يأخذني إليه، فجأة رنّ الهاتف قمت بتثاقل شـديد، واذا به رقم غريب، لم أود أن أُجيب لأن السـاعة كانت الثانية عشـر ولكن لا أعلم لماذا قلت نعم، لم اسـمع سـوى أنفاساً حسـبت إنه أحد الحمقى الذين يعبثون مع البنات، أو سنان، كدت أغلق الهاتف لو لا سماع ديانا

- من ؟ آزاد!! أين أنت ؟

- أنا هنا فقط أخرجي من المنزل واتجهي للأمام من شارعكم.

لا أعرف ماذا أفعل في تلك اللحظة، لم أفكر حتى بأن الوقت لا يســمح، لـم يكـن عـقـلـي فـي رأســي، كـان قـلـبـي فـي كُـلـي لـم ارَ مـن حـولـي، انهـارت دموعي شــوقًـا وبـت اركض وأنـا أجر نَفســي، ودموعي وحنيني. خرجـت مـن بـاب المـنزل لاصــطـدم بحجرة وأســقـط عـلى الأرض، لملمـت نفســي وتركـت البعض من دموعي وذهبـت اركض واذا بـآزاد ..!!

- ما هذا ما بك لماذا أنت هكذا ؟!!

اسرعت لأضعه في حضني.

- لقد اشــتقت اليكِ يا ديانا، بعدد حســراتي في تلك الزنزانة أضــعافاً، ديانا أريد أن...

- لالا ، لا تتعب نفسك يجب أن تأتي الأسعاف.

- لا ديانا توقفي يجب أن أقول الكثير.. ديانا أرجوكِ، ديانا لقد وجدت الله أخيرًا، أجل وجدته بشــوقي اليكِ وجدته حين اعطيتني لحظات عشــقٍ لا أنســاها، وجدته عندما أحببتكِ، وجدته عندما قلتِ أحبك، ديانا ها قد بدأت انتهي لتستمري أنتِ في العيش.

- لا، لا يا آزاد أنا لا أســتطيع العيش دونك، أموت صــدقني أموت يا آزاد أنا... آزاد آزاد

- ديانا إعلمي إني ما أحببت من النســاء إلا أمي وأنتِ، ولا اريد الآن شــيئاً فلقد علمت إن الله يهتم لأمري عندما بعثك لتنتشــليني من ضــياعي، وها هو يحبني فيأخذني لجواره.

بدأت امسح العرق عن جبينه، وأنا غارقة بدمه:

- آزاد أعـلم إنـك تـمزح، أو هـو حـلم لا بـل كـابوس ســتُقظني منـه أنا أعلم أنك لا تتركني، آزاد ؟ آزاد ؟ !!

تلمســـت جبينه واذا بهِ بارد، لا لم يكن هو ربما أنا باردة، لا ربما لا آزااād
صـرخت صـرخة كانت تكفي ليسـتفيق أموات وادي السـلام من سـباتهم:
- آزاد لا تتركني أنا العدم من بعدك، آزاد... آزاد ؟
سمعت صوت رجل يقول: يكفي يا اختي يكفي رحمه الله.
- ماذا لا لا مســتحيل، أنتم تكذبون، من أنت لتقول رحمه الله. لا، لا هو لا يتركني، لا يترك بغداد، انظر يا آزاد بعد أن نتزوج أنا وأنت سـنذهب كل يوم للتحرير، ونعوّد أطفالنا عليها. أجل ســيخرجون بالفطرة يعشــقون بغداد، فأنت أباهم لاعجب من ذلك ياحبيبي. ســنذهب لعمي بطرس ليروي لنا رواية جميلة أو نذهب لدجلة لنقول لها أننا غارقون ببعضــنا، ولا نريد النجاة. آزاد لا تتركني، آزاد أنـت لا تترك حبيبتـك، آزاد لا آزاد.
ضــممتـه إلى صـــدري ليـدفأ داخلي، ورفعـت رأســي إلى الســمـاء صرخت بكل دموعي، ياالله.
- ابنتي كفى.
- من أبي، أبي آزاد لم يمـت، آزاد آزاد قـال لي إنـه لا يتركني، كيف...
- يكفي يا ابنتي، جاءت سيارة الأسعاف و..
- ماهذا هل جئت يا حبيبي...
- وهل اتركَكِ يا روحي ؟
- لماذا تأخرت ؟
لا شـــيء كنت فقط أعبر الزحمة البغدادية المعتادة، أنا أعبر الحروب للقاء عينيكِ، لا زحمة الناس.
تلمســت وجنتيه ورحت أرى إني أمتلكت العالم، أصــوات مرعبة وأخرى صــارخة وبعضــها باكية، وأحدهم يقول، ابتعدوا ابتعدوا. أضـواء شـديدة سـرقتني مما أنا عليه، أسـرعت لأضـم نفسـي الى صـدر آزاد وكأني اختبأ

من الجميع، أخذني بذراعيه وقال لاتخافي أبداً. بعدها رأيت نفسي في غرفة ومؤيد يقوم بوضـــع المغذي، كانت لين تمســـك بيدي وأمي في الجهة اليسرى تبكي. قلت:

- ما هذا أين أنا؟

قفزت من الســـرير لأرى آزاد مغطى بكفن أبيض، لم يجرأ أحد على لمســـي أو إيقافي، ولا حتى لين. جئت الى جانبهِ وهمست بأذنه:

- لن تموت بداخلي.

أخذوه بعيداً عني وبقيت يدي في الهواء تصـــرخ خلفه، فوقعت من فوري ولم اســـتيقظ إلا في اليوم التالي. عندما فتحت عيني ابتســـمت وأنا أقول:

- لين آه يا لين كابوس كابوس مرعب.

بكت لين وهي تشد على يدي، وتقول:

- تماسكي يا ديانا هذه مشيئة الله.

نظرت الى أبي وأمي، مؤيد والعم بطرس، والخالة مريم، الكل كان يخفي الدموع بصعوبة، قال أبي:

- يجب أن نتجهز للتشييع والدفن.

تلك الكلمات وقعت عليّ كما يقع أحدهم من حافة هاوية، أو كوقع حجر بكبر حزني الآن على رأسي.

- ديانا لقد كانت قطعة القماش هذه مع آزاد.

كان ما يسمى بالغترة أو الشماغ، غارقة بدمه، احتضنتها ورحت أبكي ولكن لا دموع في عيني. من أول ليلة إنهارت طاقتي، فكيف بي في باقي الأيام؟

- ديـانـا لقـد رحـل آزاد شـــهيـداً، هو الآن مع أمـه مع صـــفـاء وأحمـد وجميع الذين اســـتشـــهدوا، هو فخر لنا جميعاً والشـــهداء أحياء يا ديانا لا يموتون.

لم أنطق بحرف واحد، كنت أضــع ما تبقى من آزاد أمامي، وأشــم رائحته الممزوجة مع الدم. اســتعدينا للذهاب لدفنه، أخرجت لي لين ملابســي الســوداء. أرواحنا قد أســودت بعدهم. ذهبنا لمدينة النجف لكي نتمم مراســيم الدفن، قام نخبة من الناس بالصــلاة على جثمانه، لم يكن هو وحده فقط بل كان هناك العديد من الشباب الذين تم قتلهم وضاع دمهم عند أهل الأرض. قاموا بإنزاله للحفرة وأنزلوا روحي معه، دفنتها هناك بجانبه. أمســكت ترابه لوثت ذاك الشــماغ به، همســت بجانب قبره:

- أريد أن أنتشــل روحي من جســدك، هلّا تخبرني كيف؟!.

قرأنا الفاتحة وعدنا لبغداد وتركناه خلفنا. لم أشــعر بنفســي أبداً بل بقيت عند قبره، رحت أعاتبه على تركه لي، ثم رحت في نوم عميق.

- لا تستسلمي يا حبيبتي ولا تضعفي، ستستمر الثورة رغم أنوف الظالمين.

أيقظتني من حلمي عثرات الطريق، أو ربما عثرة روحي التي ليس لها زوال.

- توقف هنا يا أبي أريد ان أكمل سيراً؟

أنزلني أبي من دون أعتراض. ذهبت لبيته فتحت الباب كان بودي أن يســتقبلني ولكنه لم يفعل! تمنيت أن يكون نائماً في داخل الغرفة، ولكن وجدت ســريره باردًا. ارتميت عليه كما ارتمى هو بأحضــاني آخر لحظاته، ورحت أصــارع الألم لأنفجر في البكاء فوق وســادته، لماذا فعلت هذا بي يا آزاد؟ لماذا تركتني لقد اشــتقت إليك؟ كيف بي أن أكمل بعدك كيف يا آزاد؟

الفقد المميت

مرت عشرة أيام على محبسي في غرفتي، أنا وصور آزاد التي كنت أحتفظ بها داخل كتبي، فهي مقدســة لا أســتطيع حفظها في ألبوم الصــور العادي،

سلسلته التي كانت تحيط عنقي كما أحاط هو قلبي. عشرة أيام عن ازدياد حبي وتعلّقي به وشوقي إليه، عشرة أيام وأنا في كل لحظة أموت غيرة من الحور العين، أخشى أن تلمسه أحداهن. لم أستطع أن أجر نفسي من دون دموعي، كنت أتخيله في كل شيء في عود عمي محسن، في مكتبتي، النافذة وكل شيء. خرجت إلى الشارع في حالة هسترية تحت ظلام الليل الدامس، أبحث عني بين كل الطرقات، بين أشياء الماضي، أين أنا مني؟ أم تراني ضعت بين كومة أحزاني فذا نصٌ تتغنى به الأيام وتشد ذات الخصر بخصرها، وتدعس أقلامي. الشرود إليه أغواني ها قد رممت حطامي، ولم أجد سوى ذاك الرماد المترامي، كنت أحمل تحت قميصي قلباً يحمل هماً، يتخبط بين أحياء روحي المظلمة لأضيع في الأجواء. ليلٌ قاتم، بردٌ قارص، وكلبٌ في نهاية الشارع يعوي. سرباً من الكلام يستريح على مصطبة الماضي الرثة، يقتص مني، يسري في دمي، ثم يخلد للنوم ولا يبقى سوى ذاك الكلب الجائع. هل تعلم يا آزاد متى يشتد الحب؟ سألت كوفيته التي كانت تنصت لي عند الهيام، والإشتياق، يا حبيبي بعد منتصف الليل، خذني من نفسي فكلي بك. ولكن يا آزاد لماذا مات العم فيتالس، آل فريدو كيف تحمّل روميو؟ كيف كان السراب حقيقة؟ لماذا عانت ريمي
وقد ألتقت بأمها في نهاية المطاف، هل سألتقي بك يوماً مثلها؟ أتعلم يا حبيبي ما هو الأسوء، إن قاتلك وقاتل صفاء واحد يتجول

في بغداد، ومن المؤكد إنه ليس بوعيه أو قد خرج للتو من الخمارة التي فسدت معدتها بسببه، وقد جلب لها السمعة القذرة. في هذه الأثناء سمعت شابين يتكلمان، قررت البلدية تنظيف شارع الأحرار وإزالة الحواجز

الـكـونـكـريـتـيـة. أخـبـروهـم أن عـلـيـهـم اتـبـاع مـا يـاتـي-: ليـتـوضـــؤا بـدموع الأمهـات، ويجعـلوا مـن أنيـن اليـتـامى كـفـوفـاً من صـرخات الأصـدقاء، والعاشـقات ممراً لعبورهم، فليتقدموا على مهلهم فهنـاك أرواح نـائـمـة، حـذاري أن يوقظوهـا لقـد ارتـاحـت بعـد عنـاء العـراق. تمهلوا لا ترتدوا اللثام، فالرائحة رائحة بغداد، والمنى رائحة دجلة والصــفا. هل ترون سـواداً على ضـفاف الجسـر هل هناك أوسـاخ في وسـط النهر ؟ أجـل هـذا تعـب الأيام ولـيـالي اكتوبر، بـرد الشــتـاء الـذي امتزج بشـــمس الصيف، على مهلكم توجد " أريد وطن" توجد أحلام وأشياء مقدّسة أخرى كقناني ماء لامســت أياديهم الطاهرة، لا تخافوا ليســت هناك بقايا للطعام فقد ناموا جياعاً دعوني ألتمس هذا الشــرف معكم، هل حاولتم رفع ذكرى اثنـان ... ثلاثـة! هـا قـد مرّ الشـارعُ مـني لـم أره ولـم يرني، أيامٌ مـرت الكل كموســيقى داخل أذني، وظلامٌ يفترش الليل. ياالله هذا الشــارع مكتئب من حزني !

أجـل يـاعزيزي عـامل النظافـة قـل لي: هـل وجـدت بين أشــيـائهم آزاد ؟ شــيء لصــفاء مثلاً، كعشــق بغداد، أو رائحة ثنوة. أم وجدتم حطام الغربة على أرض الوطن! فعلاً هو جســر الأحرار أوصــيكم بعـدم الأغتســـال بعد انتهائكم، فو الله ما رفعتم ألا الطهارة ...

- ديانا ماذا حدث لكِ لماذا أنتِ هكذا ؟

- من أنتم ؟

- أنـا بيـانكـا وهـذا أيمن يـا ديـانـا، لِمَ أنـت في هـذه الحـال ؟ وأين آزاد ؟

- تحت التراب!

نظر أحدهم للاخر ولم يتفوها بكلمة، ولا حتى حرف. أخذت بيانكا تذرف الدموع ثم امسكت بيدي.

- يجب أن تعودي للمنزل الجو شديد البرودة.
- إذاً ما هذه النار بداخلي ؟!
- ديانا ؟

نظرت وإذا به سنان، تمنيت لو إني أشرب من دمه. تقدمت نحوه أراد أيمن الهجوم عليه فأمسكته، ولم يخب ظني فلم يكن بوعيه، ورائحته قذرة كما هو.

- هل تعلم شيء يا سنان لا أريد توسيخ حتى لساني بالتحدث إليك. كنت عند آزاد وفي كل لحظة سأكون عنده، سترى وجوه الأبرياء الذين تسببت بموتهم في منامك، لا تستطيع بعدها أن تغمض عينيك أو تفتحهما، سيطاردك خيالهم حتى في يقظتك، ستتمنى الموت ولا تناله. ستكون دعوات الأمهات لعنة تحل عليك ولأن أم آزاد ميتة فسألعنك في كل يوم، كلما تذكرت آزاد.

أخذني أيمن بعيداً عنه وذهبنا للمنزل، وضعني أبي في فراشي احتضنت أشياء آزاد ورحت في نوم عميق. عندما استيقظت في صباح اليوم التالي لم أكن كما كنت بالأمس بل لم أكن أنا حتى. أخذت نفسي ثم ذهبت من دون أن يلاحظ والديّ شيئاً، وقفت للحظات أمام بيت مؤيد ولين، تركت لهما ورقة صغيرة ثم أكملت طريقي. عندما مررت ببيت آزاد لم يكن بداخلي شيء من الأوكسجين، أخذت جرعتي الكافية قبلّت باب الدار لست سوى نافلة عند مئذنة عشقك،

ثم أكملت طريقي واضعة اللثام على فمي (شماغ آزاد). كانت الخلاني تضج بالمعتصمين وقوات الشغب والمليشيات، أتخذت طريقي لأدخل بينهم ثم أعبر للمفرزة التي تقع في خط الصد الأول. فجأة أصبح رمي الرصاص قريباً مني، صرخوا يستغيثون وكانت أصوات الجرحى تعلو

في المكـان، أخـذت بعض المعـدات ثم خرجـت لكي أحـاول إنقـاذهم، لقـد وهبـت نفســي للوطن بعـد آزاد ولا أريـد أن يموت أحـد بعـده. قمـت بمعـالجـة البعض وكـان هنـاك من يقوم بحمـايتي من الشــبـاب، حيث قاموا بعمل صد أو حاجز خشـية أن يصـيبني مكروه. لمحت أحدهم يطلب المسـاعدة بعد أن تلقى رصـاصـة في قدمه، أثناء ما كنتُ في طريقي إليـه تلقيـت رصــاصـــة في صـــدري، وقعـت على أثرهـا أرضـــاً. رأيت حينها آزاد يتقدم نحوي يرتدي البياض، وجهه جميل لحيته وشـــعره مسرحان، لم أبعد ناظري عنه، قام بأنزال اللثام عن وجهي.

- آزاد لقد أتيت اليك.

ها هو يضعني في حجره وينظر إليّ، انتهى يا روحي أنتهى.

- ديانا .. ديانا أرجوكِ قاومي، أنا لم أتعمد أصـابتكِ يا ديانا أرجوكِ لا تموتي يا حبيبتي أرجوكِ

- سنان، سنحيا نحن وأنتم ستموتون في حياتكم.

رأيت من بعيد لين ومؤيد، سقطت لين مراراً على الأرض حتى وصلت إليّ.

- لين أنا سأذهب له يا لين.

- لا يا ديانا لا يمكنكِ تركي، لا مســتحيل يا ديانا أنتِ تعلمين أن دنيتي لا تساوي شيئاً من بعدكِ، لا يا ديانا.

- لين خذيني لصدركِ أريد أن أشمك.

قامت لين بضمي وهي تبكي، ومؤيد من الجهة الأخرى.

- أرجوكم اعتنوا بأمي وأبي لا تتركاهما وحيدين، وأبلغا سـلامي لعمي بطرس والخـالـة مريم. لين غرفتي، مكتبتي، عودي، وكـل محيطي أمـانـة لـكِ.

- لا يا ديانا سنعود جميعاً يا حلوتي.

أخذت تمسح على رأسي، ثم تقوم بأبعاد خصلاتي عن وجهي، لتلامس دموعها بشرتي.

- لين هناك شيء فوق مكتبتي تكفلي بإكماله من أجلي، ومن أجل جميع الشهداء ـ ليعلم من مثل سنان وغيرهم أننا سنبقى على قيد الذاكرة. أحبكِ.

بعد مرور ثماني سنوات

هيا يا مؤيد سنتأخر.

قادم يا حبيبتي.

- هيا ديانا، هيا يا ابنتي سنتأخر على جدك وجدتك، أمي وسن هيا.

- ها قد وصلنا يا لين هيا.

- كيف حالك يا عمي ؟

- بخير يا عزيزتي، آه ديانا تعالي لي.

- جدي حبيبي هل تعلم أني أحبك كثيراً.

- هل يمكنني أن آكل هذا الأنف الجميل ؟

- دع لي منه يا جلال.

- خالتي فضة كيف حالكِ ؟

- أهلاً يا أبنتي.

- أين نديم ؟

- سيأتي خلفنا، هيا لنركب السيارة.

- ها قد أتيت أين تنوون الرحيل من دوني ؟

- لا نذهب، ننتظر أيمن، وبيانكا وآزاد.

- ها قد وصلا هل نتحرك، وقد جاء العم بطرس والخالة مريم. أجتمعنا معًا في سيارات متفرقة، ثم انطلقنا في طريقنا إلى أن وصلنا لقبر ديانا وآزاد،

كانت الورود تغطي قبريهما، كلما ذهبنا وعدنا نجد أن الورود تتجدد، وكأنهما يهبطان يسقيانها ثم يعودان.
جلســـت عند رأس القبر أتذكر كلمات تلك الرســـالة التي تركتها لي قبل أســـتشـــهادها. (حبيبتي لين... قضـــيت حياتي لا أعلم لماذا أتخذ هذه الخطوات، ولكن الآن أعلم جيداً أن ما أفعله هو عين الصواب. كوني حذرة ولا تؤذي نفســـكِ، حافظي على ذكرياتنا، أنظري لأمي وأبي بين الحين والآخر، أخبريهم أني أحبهم حبًا جماً، إعتني بمؤيد واجعلي من نـديم أخاً لكِ... أحبك كثيرا لا تنســـي هذا، أنا ذاهبة للخلاني عليّ أن ألتقي بآزاد او لا أعود من دونه. ديانا ..)
زرنا قبريهما وقرأنا الفاتحة، كنت أحســـد التراب الذي لامس خديّ ديانا، أشتقت لكِ يا عزيزتي، وصدق وعدكِ أنت الآن بيننا ولن ننساكِ يا ديانا، سيزداد حبي لكِ يا أختي في كل لحظة.. السيد والسيدة جلال كانا يتكئان على بعضهما، وهما يمسحان قبر ديانا، بكينا حتى أحسسنا بزوال القليل من شـــوقنا، ثم أردنا العودة، لمحت رجلاً هزيلاً بلحية كثيفة يعتريها البياض، وملابس بالية لكن وجهه ليس غريبًا عليّ. كان ينظر لقبر ديانا ويبدو سارحًا.
- مؤيد من هذا؟؟
- إتركيه يا لين فليذهب إلى الجحيم.
- من هذا يا مؤيد، هل هو سنان !!؟
أبعد ناظريه عنه، ونظر إلى قبر ديانا ثم قال:
أجل. تقدمت منه أخذت انظر إليه، كدت أشـــفق على حالته التي يُرثى لها:
هل تذكرتني يا سنان ؟!
- من أنتِ؟

- أنا ! التي قتلت روحها ودفنتها هنا، أنا التي تدعو الله في كل يوم ليأخذ حق ديانا وآزاد من رقبتك، أنا التي تنام كل يوم على أمل أن يكون ذاك الصباح الذي قتلت به ديانا كذبة!

- لين؟ أرجوكِ يا لين أدعي لي أن يأخذ الله روحي، أرجوكِ يا لين لم أعد أتحمل، أنا أراهم في كل مكان لا يمكنني أن أستريح منذ ثماني سنوات يا لين.

- لم يموتوا عندما قتلتهم، بل مت أنت.

تركته خلفي يتوسل بدموعه المتخذة من وجهه الذي تكسوه التجاعيد، أيام الخراب التي تسبب بها. ثم عدنا للبيت وهذه المرة عادت معنا ديانا وآزاد.

- ما هذا الكتاب يا جدي؟

أنه اثمن كنز أمتلكه يا حفيدتي. (أزقة بغداد).

يبقى العراق رغم أنوف الظالمين مهما اشتدت الكربات، ستبتسم بغداد كل صباح للأطفال، سيُنتشر النور من روح الشهداء لينير وجوه الأمهات. إن الشهداء أحياء عند ربهم يُرزقون.

" العالم ليس واسعاً بل أضيق من عيني أبي،
عندما يقوم بغلقهما للنصف لكي يرى بوضوح، بل ويختفي عندما ينام! "

تمت

و صلى الله على قدسية أمي وأبي